التّوظيف البلاغيّ للبنية النّحويّة لفنّ التّشبيه

في القرآن الكريم

"دراسة بلاغية تحليلية"

إعداد

إيهاب عبد الفتاح أحمد

مدرس – قسم اللغة العربية

كلية الآداب – جامعة بني سويف

الملخص:

يرصـــد هـذا البحـث التوظيف البلاغي للبنيـة النّحويّـة لفنّ التشـــبيـه، وبيـان مقاصـــدها البلاغية التي أنتجتها في السِّـــياق القرآني. وقد تعدَّدت البنى النّحويّة في السّياق التشبيهيّ القرآنيّ ما بين بنية إسناد، وبنية نفي، وبنية نهي، وبنية وصف، وبنية حال؛ الأمر الذي يُشـــكِّلُ ظاهرةً تفرض نفســـها على الدَّرس اللُّغويّ والبلاغيّ؛ فالنَّصُّ القرآنيُّ معجزٌ في ألفاظه وتراكيبه، ولا شـــكَّ أنَّ البنية النّحويّة للتشـــبيه لها أهمّيَّتُها وأثرها في ســـياق المعنى؛ وذلك حين تؤلّف بين الأشـــياء المتنافرة والأجزاء المتباينة، ثم تنتقل من التنافر والتباين المعجمي إلى التكامل السياقي، وتتحرر فيها الدلالة من إطارها الضيّق لتتَّجه نحو الاتساع والمجاز.

الكلمات المفاتيح:

التوظيف، التشبيه، البنية، النحوية، السياق، القرآني، المعجمي

Abstract:

This research investigates the rhetorical employment of the grammatical structure of the art of simile and aims to elucidate its rhetorical purposes as manifested in the Quranic context. The grammatical structures in the Quranic simile context have varied, encompassing attribution, negation, prohibition, description, and state structures. This variation constitutes a phenomenon that necessitates linguistic and rhetorical analysis. The Quranic text is miraculous in its wording and composition, and undoubtedly, the grammatical structure of simile holds significant importance and impact within the context of meaning. This occurs when it juxtaposes seemingly disparate entities and distinct elements, subsequently transitioning from lexical incongruity and divergence to contextual integration, wherein the significance transcends its narrow confines, moving towards expansiveness and figurative expression.

Keywords:

Employment, Simile, Structure, Grammatical, Context, Quranic, Lexical.

المقدمة:

ينصّ المصطلح البلاغي للتشبيه (*) على أنه جمع بين طرفين مختلفين بينهما اتفاق ما، تحقيقًا أو تأويلاً؛ ذلك أن المتكلم ينتقل بالمستمع من الشيء نفسه، إلى شيء آخر يماثله. ومما يدعم الإحساس ببلاغة التشبيه؛ اعتماده التركيب النحوي، الذي يُوجب على المتلقي استقراء الصورة الفنية في مستويين؛ أحدهما نحوي، والآخر بلاغي، حتى يتسنّى له الانتقال من بنية المعنى السطحية إلى بنيته العميقة. وكلما كان هذا الاستقراء ممتزجًا بشيء من الخيال، كانت الصورة أقوى في الإمتاع، وأدعى إلى الطرب، وكانت النفس أشدّ إعجابًا والتذاذًا بها. من ذلك قول القاضي التنوخي: [من بحر الخفيف]

وكأنّ النّجُومَ بينَ دُجَاها سُنَنٌ لاحَ بَينهُنَّ ابتداعُ (1)

اكتسى التشبيه في هذا الشاهد حُلّة نحوية؛ إذ إن المشبه به في حكم الخبر للمشبه، وذلك قوله: (وكأنّ النّجُومَ بينَ دُجَاها سُنَنٌ)، فكأنّ حرف معناه التشبيه، وهو مركب من كاف التشبيه وأنّ، وأصل قوله: (كأنّ النّجُومَ بينَ دُجَاها سُنَنٌ) (إنّ النجومَ بين دُجَاها كالسّنَنِ)، فالكاف هنا تشبيه صريح، وهي في موضع الخبر تتعلق بمحذوف تقديره: (إنّ النجومَ كائنةٌ بين دُجَاها كالسّنَنِ)، ثم أراد الشاعر عقد هذه المشابهة، فأزال الكاف من وسط الجملة، وقدّمها إلى أولها جريًا على قواعد اللغة(2)؛ لإظهار فرط عنايته بالتشبيه المنعقد، فلما أدخل الكاف على إنّ وجب فتحها؛ لأن المكسورة لا تقع عليها حروف الجر، ولا تكون إلا أولا، وبقي معنى التشبيه الذي كان فيها متأخرة، فصار الكلام: (كأنّ النّجُومَ بينَ دُجَاها سُنَنٌ). وفرق كبير بين الأصل في الكلام والفرع منه من حيث التشبيه؛ إذ إنّ التشبيه في الفرع أقعد منه في الأصل،

(*) وقد وردت له في الاصطلاح عدة تعريفات تختلف في وضوحها وشمولها، فعند العسكري: هو الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه، ناب منابه أو لم ينب. الصناعتين ص226. وعند ابن رشيق: صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة. العمدة ج1، ص194. وعند عبد القاهر أن يثبت لهذا معنى من معاني ذاك أو حكمًا من أحكامه كإثباتك للرجل شجاعة الأسد. أسرار البلاغة ص63 ،64. وعند السكاكي: وصف الشيء بمشاركته المشبه به في أمر. مفتاح العلوم ص177. وعند ابن الأثير: أن يثبت للمشبه حكم من أحكام المشبه به. المثل السائر ص163. وعند الخطيب: الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى. الإيضاح ص152.

(1)القاضي التنوخي: علي بن محمد، ديوان، ضمن مجلة المورد (مجلة تراثية ثقافية)، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ـ العراق، مج 13، ع 1، ط 1984م، ص 63.

(2) راجع السامرائي: فاضل، معاني النحو، دار الفكر – الأردن، ط1، 1420هـ، 2000م، ج1، ص 309 وما بعدها.

لأنه مركب من الكاف المفيدة للتشبيه، وأنّ المفيدة للتوكيد، وهكذا يكون التشبيه بكأنّ أبلغ من التشبيه بالكاف. وطرب النفس لهذا التشبيه يأتي من إبداع الشاعر في عقد مشابهة قلما تنعقد في خاطر أحد؛ حيث شبه حالة النجوم منتشرة في فضاء السماء ليلا، بحال السُّننِ النبويّة الصحيحة، وقد تخللتها البدع الباطلة، ولهذا التشبيه جمال آخر، يأتي من أنَّ الشاعر تخيَّل أنَّ السُّنن شديدة اللمعان، وأنَّ البدع حالكة السواد.

ومن ذلك . أيضًا . قول امرئ القيس: [من بحر الطويل]

نَظَرْتُ إليها والنُّجومُ كأنَّها مصابيحُ رهبانٍ تشبُّ لقُفَّالِ (1)

لما أراد الشاعر المبالغة في التشبيه بين النجوم في لمعانها ومصابيح الرهبان المزهرة، كسا التشبيه بنية نحوية؛ إذ إن المشبه به في حكم الخبر للمشبه، وذلك قوله: (النُّجومُ كأنَّها مصابيحُ رهبانٍ)، وأصله: (إنّ النجومَ كمصَابيحِ رهبانٍ)، فالكاف هنا تشبيه صريح، وهي في موضع الخبر تتعلق بمحذوف تقديره: (إنّ النجومَ كائنةٌ كمصَابيحِ رهبانٍ)، ثم أراد الشاعر عقد هذه المشابهة، فأزال الكاف من وسط الجملة وقدمها إلى أولها جريًا على قواعد اللغة؛ لإظهار فرط الشبه بين النجوم ومصابيح الرهبان فكأنها هي. وروعة هذا التشبيه تأتي من الصورة المركبة فيه؛ حيث شبّه النجوم في لمعانها وتلألئها في أول الليل، ثم تضاؤل ضيائها مع طلوع الفجر بمصابيح رهبان تعهدوها أول الليل لتزهر، وربما غفلوا عنها آخره فضعف نورها، ثم شبّه مو اقع النجوم في رقعة السماء بتلك النيران متفرقة ومجتمعة من مكان إلى مكان، وقد أوقدتها العرب في أحيائها بالبادية؛ لتهتدي بها حين تأوي إلى منازلها قافلة من مصيف إلى مشتى إلى مربع.

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى الكشف عن الأبعاد البلاغية النحويّة لبنية التشبيه في القرآن الكريم، ورصد تأثير دلالة هذه الأبعاد في متلقي السياق التشبيهي القر آني؛ ومن ثمّ إتاحة أفق جديد لفهم النّصّ القر آنيّ.

(1) امرؤ القَيس بن حجر: ديوان امرئ القيس، تحقيق المصطاوي، دار المعرفة – بيروت، ط2، 1425هـ، 2004م، ص137.

أهمية الدراسة:

تأتي أهمية هذه الدراسة من أنّها تسلّط الضوء على ظاهرة لغويّة بلاغيّة، تتعلق بجملة من التراكيب النحويّة في بنية التشبيه البلاغي في السياق القرآني؛ نحو الإسناد، والنفي، والوصف، والحال، في محاولة لإبرازمقاصدها البلاغية التي أنتجتها في سياق الآيات القرآنية؛ ومن ثم الانتقال من ضيق المعنى النحوي في بنيته السطحية إلى رحاب الدلالة البلاغية في بنيتها العميقة.

منهج الدراسة:

قامت الدراسة على المنهج الوصفيّ التَّحليليّ؛ وصفًا لمعالم الامتزاج بين النحووالبلاغة، متمثلة في بعض التراكيب النحوية لبنية التشبيه، وتَحلِيلاً للسّياق القرآني، للكشف عن أسرارها واستخراج لطائفها. ومن ثمّ اقتضت طبيعة الدراسة أن تكون في محورين يسبقهما مقدمة، وتعقبهما خاتمة تشمل نتائج الدراسة وتوصياتها.

(1)
القيمة الفنيّة لبنية التشبيه

تتحقق القيمة الفنيّة لبنية التشبيه بما تشتمل عليه من عناصر جمالية؛ كالطرافة والغرابة، والاختراع والابتكار، والتفصيل والتحليل، والتخييل، والتمثيل، ومن شأن هذه العناصر أن تحدث لذة في نفس المتلقي، وذلك حين يدرك أبعاد الصورة التشبيهية، ويقف على دلالاتها وإيحاءاتها؛ فأما عنصر الطرافة والغرابة (1)، فيكون بإبراز المشبه المعلوم في صورة المشبه به الممتنع، أو بإبراز المشبَّهِ مشبَّهًا به بادِّعاءِ أنَّ وجه الشبه فيه أَقوَى وأظهر.

أما عن إبراز المشبه المعلوم في صورة المشبه به الممتنع، فنحو قول الشاعر:

[من بحر البسيط]

رَأَيْتُ فَحْمًا سَرَى فِيهِ اللَّهِيبُ حَكَى بَحْرًا مِنَ المِسْكِ ذَا مَوْجٍ مِنَ الذَّهَبِ

فإن بحر المسك الذي موجه من الذهب هو في حكم المعدوم الممتنع؛ ومن ثمّ صار حضوره نادرًا لا يكاد يحصل، فمن الصعب أن يتمثل أحد في خاطره صورة بحر من المسك وموجه ذهب، حين ينظر إلى فحم فيه جمر موقد، ولهذا كانت ندرة الحضور موجبة لطرافته وغرابته، ومن ثم الالتذاذ به، لأن لكل غريب لذة.

ومنه قول الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ) [الأعراف: 40].

ذلك أن دخول الجمل (وهو أشهر الحيوانات ضخامة في عرف العرب) في سمّ الخياط (وهو الثقب الضيق للإبرة) أمر مستحيل عقلاً وحسًّا. وقد استُخدم هذا التشبيه لبيان الاستحالة القطعية لدخول الكافرين الجنة ما داموا على كفرهم وتكبرهم عن آيات الله. فالمعلوم هنا هو عدم دخولهم الجنة، وشُبِّه بالممتنع وهو ولوج الجمل في سمّ الخياط، لتأكيد هذا الاستحالة بصورة بليغة.

(1)انظر ابن يعقوب المغربي: مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، ضمن شروح التلخيص للتفتازني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، ط 1937م، ج3، ص 404. وكذلك حاشية الدسوقي على شرح السعد، ضمن شروح التلخيص، المصدر نفسه، والجزء نفسه، والصفحة نفسها.

وقد يكون المشبه به مما يندر حضوره في الذهن؛ إما بشكل مطلق، وتكون ندرته لبُعْد تصوُّره، وإما بشكل غير مطلق، وتكون ندرته حاصلة من اقتران به بالمشبه إبّان الحديث عنه، بأن يكون المشبه به مشاهدًا مُعتادًا، لكن مواطنه غير مواطن المشبه؛ لأن كلًا منهما من وادٍ غير وادي الآخر، فيبعد حضور أحدهما في الذهن عند حضور الآخر، كما في تشبيه البنفسج في قول أبي القاسم البغدادي: [من بحر البسيط]

ولا زِوَرْدِيّةٌ (*) تزهُو بزُرقتِها بين الرّياض على حُمْرِ اليواقيتِ

كأنّها فوق قاماتٍ ضَعُفن بها أوائلُ النار في أطراف كبريتِ

وواضح ما بين المشبه والمشبه به من اختلاف يوحي إلى نفس المتلقي مشاعر متناقضة؛ ففي حين تنبسط نفسه طربًا عند حضور صورة زهرة البنفسج في ذهنه بكل معاني الجمال، والرائحة الطيبة، تفزع وتنقبض خوفًا عند حضور صورة لهب الكبريت بكل معاني الخطر وألم الاحتراق بها؛ "ذلك أن صورة اتّصال النار بأطراف الكبريت لا يندر حضورها في الذهن ندرة حضور بحر من المسك موجه الذهب، لكن يندر حضورها عند حضور صورة البنفسج"(1).

ومن ذلك قول الله تعالى: { إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ورَأَوُا العَذابَ وتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبابُ}. [البقرة: الآية 166].

فالمشبه به في الآية الكريمة مما يندر حضوره في الذهن مقترنًا بالمشبه؛ حيث شبَّه الذين يتبعون الملّة الزّائفة بمَنْ يرتقي النّخلة ليجمع ثمرها، وشبّه عبادة الأصنام التي يعبدها لتُقرّبَه إلى الله زُلفى بالحبل الموصل بتلك النّخلةِ، وشبّه جزاء عبادته واتّباعه بالثّمرة في أعلى النخلة، وشبّه العُمُرَ بالنخلة ذاتها، وشبّه الحرمان من الوصول إلى ذلك الجزاء والنّعيم بتقطّع الحبل، وشبّه الخَيبَة والوقوع في العذاب بالبعد عن ثمار النّخلة والسُّقوط من أعلاها.

وأما عن إبراز المشبَّه مشبَّهًا به، فيكون بادّعاءِ أنَّ وجه الشبه في المشبّه أَقوَى وأظهر؛ ليتوهم المتلقي أن المشبّه به المقصود بالمبالغة أتمّ في وجه الشبه من المشبّه الذي أصله

(*) قوله: ولازِوَرْدية، الواو واو ربَّ، و"لا" من بنية الكلمة "نافية" ـ وهو بكسر الزاي ـ واللازِوَرْديَّة صفة لمحذوف؛ أي: رُبَّ أزهار من البنفسج لازوردية، (نسبها الشاعر إلى الحجر المعروف باللازورد؛ لكونها على لونه، فهي نسبة تشبيهية)؛ "حاشية الدسوقي" (ضمن "شروح التلخيص" 403/3).

(1)التفتازاني: سعد الدين، مختصر التفتازاني، ضمن شروح التلخيص، مصدر سابق، ج3، ص406.

مشبّه به، اعتمادًا على القاعدة المقررة: من أن الوجه في المشبه به أتمّ. ويسمَّى ذلك بالتشبيهِ المقلوبِ أو المعكوسِ؛ وذلك نحو قول محمد بن وهيب يمدح المأمون(1): [من بحر الكامل]

وبَدَا الصَّباحُ كأنَّ غرَّتَهُ وَجْهُ الخَليفةِ حِينَ يُمْتَدَحُ

فقد شبَّهَ غرَّةَ الصباح بوجهِ الخليفةِ، إيهامًا أنه أتمُّ منها في وجه الشَّبه، فجعل وجه الخليفة كأنه أتم و أكمل في النوروالضياء من الصَّباح، فاستقام له بحكم هذه النية أن يجعل الصباح فرعًا ووجه الخليفة أصلًا. "كأنه يستكثر للصباح أن يشبَّه بوجه الخليفة... وجهته الساحرة أنه يوقع المبالغة في نفسك من حيث لا تشعر، ويفيدُكها من غير أن يظهر ادّعاؤه لها، لأنه وضع كلامه وضع من يقيس على أصل متفق عليه...والمعاني إذا وردت على النفس هذا المورد، كان لها ضرب من السرور خاص، وحدث بها من الفرح عجيب"(2).

ومنه قوله تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلّا كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ المَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهم قالُوا إِنَّما البَيْعُ مِثْلُ الرِّبا} [البقرة: الآية 275].

ففي قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهم قالُوا إِنَّما البَيْعُ مِثْلُ الرِّبا} ادعاء فيه مبالغة بأن الربا أصل في الحلّ والبيع فرع، فشبهوا البيع بالربا ليحلّوا ما حرّم الله؛ بغية فتنة المسلمين في صحَّةِ أحكام شريعتهم السمحة.

بينما عنصر الاختراع والابتكار، فيكون بالإتيان بمعانٍ مخترعة لم يُسبق إليها، وذلك في ألفاظ بديعة لم تجر العادة بمثلها. ومن التشبيهات التي عدَّها البلاغيون منَ المبتكر الذي لم يُسبق إليه، ولا جاء أحد من الشعراء قبله بنظيره، قول امرئ القيس: [من بحر الطويل]

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَمَا نَامَ أَهْلُهَا سُمُوَّ حَبَابِ المَاءِ حَالًا عَلَى حَالِ

فهذا التشبيه جمع بين لطف العبارة ورقة التشبيه وبراعته؛ حيث شبّه حالة وصوله إلى محبوبته بتدافع فقاقع الماء شيئًا بعد شيء. وكذلك قوله من القصيدة نفسها:

كَأَنَّ قُلوبَ الطَّيرِ رَطبًا وَيابِسًا لَدى وَكْرِها العُنّابُ وَالحَشَفُ البَالِي

حيث شبّه قلوب الطير الرطبة بالعنَّاب، واليابسة بالتَّمر الرديء الذي انقضى خيره. وهذا التشبيه لا ينازعه فيه أحد، وهو أول من طرق معناه و ابتكره، وسلم الشُّعراء إليه (3).

(1)انظر المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص408.

(2)الجرجاني : عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة ، ص223، 224.

(3)انظر ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، 1981م.، ص262.

ومنه قول الله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وإِنَّ أَوْهَنَ البِيُوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ} [العنكبوت 41].

فهذا التشبيه من مبتكرات القرآن الكريم؛ حيث شبّه حال مشركي قريش وكل من شابههم في اتخاذ أولياء يظنونهم دافعين عنهم، بينما هم أضعف من أن يدفعوا عن أنفسهم، بِحالِ العنكبوت تحسب أن بيتها الذي اتخذته يعصمها من الاعتداء عليها، فإذا هو في غاية الضعف يسقط ويتلاشى مع أقل حركة.

والتشبيه المبتكر يتفاوت في الحسن من حيث الدقة والعمق، ومن حيث ما يشتمل عليه من أمور طريفة مخترعة تثير إعجاب المتلقي، ومن ذلك قول ابن دريد يصف تفاحة:

[من بحر الطويل]

وَتُفَّاحَةٍ مِنْ سَوْسَنٍ صِيغَ نِصْفُهَا وَمِنْ جُلَّنَارٍ نِصْفُهَا وَشَقَائِقِ
كَأَنَّ النَّوَى قَدْ ضَمَّ مِنْ بَعْدِ فُرْقَةٍ بِهَا خَدَّ مَعْشُوقٍ إِلَى خَدِّ عَاشِقِ

فهذه صورة متقنة للتشبيه المخترع؛ حيث شبّه التفاحة بالخدّ، مخالفة لما جرى عليه العرف في تشبيه الخدّ بالتفاح. والشيء المبتكر هنا ليس في تشبيه التفاحة بالخدّ فحسب، و إنما في جعله لون التفاحة ــ الذي يجمع بين اللونين: الأصفر، والأحمر ــ طرفًا في التشبيه، في مقابل خدّين: خدّ العاشق، وخدّ المعشوق؛ فجمع بين" خدّ المعشوق بما يجول فيه من ماء الشباب، والآخر أصفر، وهو خدّ العاشق الذي أذبلته اللوعة ووسمه الغرام بميسم الضنى، فحدث هنا التلاؤم، والانسجام، والمشاكلة بين طرفي التشبيه"(1). وهكذا يكون التشبيه وسيلة ـ بما يتضمنه من صور مخترعة ـ للكشف عن علاقات خفيّة بين الأشياء.

ومن ذلك أبيات المُغَلِّس يصف الشموع: [من بحر المتقارب]

كَأَنَّ الشمُوعَ وقَد أَطلعَتْ مِن النَّارِ في كلِّ رمحٍ سنَانَا
أَنَامِلُ أعدَائِكَ الخَائِفِينَ تَضَرَّعُ تَطلبُ مِنكَ الأَمَانَا

فمن المخترع في هذا البيت هو تشبيه أطراف الشموع مشتعلة بالنار بأنامل الأعداء على هيئة مخصوصة هي هيئة الارتعاش، والاضطراب، والخوف. "ومعلوم أنه راعى تلك الحركة في جانب المشبّه والمشبّه به، فإنّ الإرعاش، والتمايل، وتداخل أشعة الضوء من جرم النار متحقق في المشبّه. وجانب الإرعاش، والحركة المضطربة متحقق في جانب المشبّه به، وزان هذه التشبيه زيادة في التعبير في نقل الحال التي تكون عليها الشموع، فهي من النار فوق

(1) انظر الجندي: علي، فن التشبيه، مكتبة نهضة مصر، ط 1952، ج1، ص 316، 317.

أعالي الأسنة. والزيادة في التعبير في نقل الحال والصورة التي تكون عليها أنامل الأعداء وقد خامرها الخوف ولجّ بها التضرع، فراحت تطلب الأمان من الممدوح"(1).

وأما عنصر التفصيل والتحليل، فيكون بوصف الشيء وصفًا كاشفًا مستوعبًا، يلمح فيه الشاعر كلّ سكونٍ وحركةٍ في الصورة التي أراد أن يرسمها للمشبّه، وقد يحتاج ذلك إلى صحة الطبع، وصدق التجربة، وقوة الملكة. وكلما كانت تفاصيل التشبيه أكثر، كانت قيمته البلاغية أعظم. ومن أمثلة التشبيهات التي تعتمد على هيئة السكون، قول الأخيطل في وصف مصلوب: [من بحر البسيط]

كَأَنَّهُ عَاشِقٌ قَدْ مَدَّ صَفْحَتَهُ يَوْمَ الوَدَاعِ إِلَى تَوْدِيعِ مُرْتَحِلِ

أَوْ قَائِمٌ مِنْ نُعاسٍ فِيهِ لُوثَتُهُ مُوَاصِلٌ لِتَمَطِّيهِ مِنَ الكَسَلِ

يتوقَّف عبد القاهر في شرح هذا التشبيه المركب وقد عدّه تشبيهًا بارعًا لكثرة التفصيل فيه، فيقول: "ولَم يلطف إلا لكثرة ما فيه من التفصيل، ولو قال:(كأنه متمطٍّ من نعاس) و اقتصر عليه، كان قريب المتناول؛ لأن الشبه إلى هذا القدر يقع في نفس الرائي المصلوبَ ابتداءً، لكونه من حدِّ الجملة. فأما بهذا الشرط وعلى هذا التقييد الذي يفيد استدامة تلك الهيئة، فلا يحضر إلا مع سفر من الخاطر، وقوة من التأمل، وذلك لحاجته أن ينظر إلى غير جهة، فيقول: (هو كالمتمطي)، ثم يقول: المتمطِّي يمدّ ظهره ويديه مدة، ثم يعود إلى حالته، فيزيد فيه أنه مواصل لذلك، ثم إذا أراد ذلك طلب علته، وهي قيام اللُّوثة والكسل في القائم من النعاس"(2).

ومنه أيضًا قوله تعالى: {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} [البقرة: الآية 266].

ففي الآية الكريمة تشبيه مركب كثير التفاصيل؛ حيث شبّه الصَّدقة بجنّةٍ خصبةٍ مثمرة، وشبّه المنّ والأذى الذي يعقب النفقة بالإعصار الذي يحرق تلك الجنّة، وشبّه خسرانَ الانتفاع بثواب الصدقة بإحراق الجنَّة حتى صارت أعوادُها يابسة، وشبّه غاية الاحتياج إلى ذلك الثواب إذا قُدّم يوم القيامة بأشدّ ساعات العجز والضعف عن إنقاذها من الحريق.

(1) الدبل: محمد بن سعد، المقاييس البلاغية والنقدية في قراضة الذهب في نقد أشعار العرب لابن رشيق القيرواني (عرض وتحليل ودراسة)، الرياض، ط2، 1431هـ - 2010م، ص 45.

(2)الجرجاني: عبد القاهر، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص185، 186، 187.

ومن التشـبيهات التي تعتمد على هيئة الحركة، قول ابن الرومـي يصـف الخبازوهو يدحو الرقاقة: [من بحر البسيط]

إِنْ أَنْسَ لاَ أَنْسَ خَبَّازًا مَرَرْتُ بِهِ يَدْحُو الرُّقَاقَةَ وَشْكَ اللَّمْحِ بِالبَصَرِ

مَـا بَيْنَ رُؤْيَتِهَـا فِـي كَفِّهِ كُرَةً وَبَيْنَ رُؤْيَتِهَـا قَـوْرَاءَ كَـالقَمَـرِ

إنها صـورة فنيّة رسـمها الشـاعر لخبّاز بين يديه قطعة عجين يدحوها حتى تصـير رقاقة مسـتديرة كالقمر. ومما يلفت النظر في هذه الصـورة، هو التركيز علـى اسـتخدام التشـبيه، مقترنًا بكلّ المفردات البصريّة التي تعمل تر ابطاتها علـى إثارة تداعيات شـعورية تدعم الحالة الوجدانية التي يؤديها المشهد، ويجسدها في الوقت نفسه، وهـي مشابهات لا تخلو من عنصر المفاجأة الناتج عن الجمع بين ما لا يجتمع عادة في الوعـي، والوصل بين المتباعدات في براعة من التصـوير الحسي في وصـف صـانع الرقاق، وتصـويره في أوضـاعه المتلاحقة، وقد اسـتطاع الشاعر بمهارته أن يوجد بينهما اتفاقًا كأحسن ما يكون الاتفاق و أتمه (1).

ومن ذلك أيضًا أبيات البحتري في الربيع: [من بحر البسيط]

أَتاكَ الرَبيعُ الطَلقُ يَختالُ ضاحِكًا مِنَ الحُسنِ حَتّى كادَ أَن يَتَكَلَّما

وَقَد نَبَّهَ النَوروزُ في غَلَسِ الدُجـى أَوائِلَ وَردٍ كُنَّ بِالأَمـسِ نُوَّما

يُفَتِّقُهـا بَـردُ النَّـدى فَكَـأَنَّهُ يَبُثُّ حَديثًا كانَ أَمـسِ مُكَتَّما

إنه جمال الطبيعة الذي يجبرك على الانشـراح له، إنها صـورة تدعو إلى الابتهاج والفرح بمقدم الربيع الطلق، الذي يأتي بالحياة المتدفقة في جميع الكائنات، حتى يكاد ينطق ويفصـح بمظاهر الجمال والبهاء؛ فتلك الأزهار تختال إذا مرّ النسـيم بها مداعبًا، فتملأ الجو بأريجها وتوقظ مخلوقـات كانت غـافلـة عن جمـال الحيـاة، "وإن هـذه الغفلـة والنوم ليحتـاجـان إلى إيقاظ عنيف، ولذلك اسـتخدم الشـاعر كلمة (يُفَتِّقُ) التي تدل على شـيء من العنف، ثم ألا ترى أن الدفء مبعث اللجاج في النوم، فمن المعتاد أن البرد يوقظ النائم، وبذلك ترى السـر في اختيار (بَرد النّدى) وسـيلة لإيقاظ الأزهار، ولما كان شـعور الشـاعر بتدفق الحياة في الكون قويًّا دافقًا، أحس كأن هذا الورد يفشـي سـرًا، كان يخفيه، واختار لتعبيره كلمة (يَبُثُّ) التي تشـعر بأن الحديث الذى يذيعه الورد حديث في خفوت يشـبه الهمس، وقال (مكَتَّمًا) لينقل إلى نفسـك ما كان عليه جمال الزهرة قبل تفتحها من سـرية محجوبة لا تبين، فكثير من الزهر

(1) انظر شبايك: عيد محمد، التشبيه المستطرف: رؤية نقدية2/1، حقوق النشر محفوظة لموقع الألوكة1434هـ، 2013م.

يتشـــابه قبل أن تتفتح أكمامه، ويقف المرء أمامه، لا يتبين ما يكون عليه أمره، بعد أن يتفتح، فجماله ســرّ مكتم لا ينمّ عنه شـيء، واختار الشـاعر كلمة (حَديث) التي توحي بهذا التجاوب النفسي بين الطبيعة والإنسان"[1].

وكذلك قوله تعالى: {خُشَّعًا أَبْصارُهم يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْداثِ كَأَنَّهم جَرادٌ مُنْتَشِرٌ} [القمر7].

فقد شـبّه هيئة خروج الموتى من الأجداث مدفوعين بعضـهم فوق بعض، بهيئة أسـراب الجراد الكثيفة التي تغطي الأفق، وطرب النفس لهذه الصـورة التشـبيهية يأتي من دقة التعبير القرآني في هذا الوصـف المجمل الذي يعتمد على الحركة؛ حيث التموج، والاضـطراب في الحركة، والذهول والارتباك.

أما عنصـر التخييل [2] فينبثق في التشـبيه حين يباعد الشـاعر بالصـنعة في تشـبيهه، كقول أبي تمام: [من بحر الكامل]

لاَ تنكري عَطَلَ الْكَريم مِنَ الْغِنَى فالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمكانِ الْعالِي

فأبو تمام يخيّل إلى المسـتمع أن الغني كالماء في حاجة الناس إليه، فإذا كان الماء لا يسـتقر في الأماكن العالية وينحدر منها، وجب بالقياس أن ينفد المال عند الكريم، وهذا القياس قياس تخييل وإيهام، لا قياس حقيقة؛ ذلك أنّ " العلّة في السّـيل لا يسـتقرّ على

(1) البدوي: أحمد، من بلاغة القرآن، نهضه مصر – القاهرة، ط 2005م، ص 27.

(2)والتخييل عملية انفعالية يحدثها الشاعر في نفس المتلقي ،وذلك بأن "تتمثل للسامع من لفظ الشاعر المخيّل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه، وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيّلها وتصورها، أو تصور شيء آخر بها انفعالًا من غير روية إلى جهة من الانبساط أو الانقباض "القرطاجني: منهاج البلغاء،ص89.ويعدُّ أول ظهور لمصطلح التخييل في كتابات البلاغيين والنقاد العرب، كان على يد عبد القاهر، وخلاصة القول في مذهبه أنه قصد بالتخييل ما قصده المتأخرون بالإيهام وحسن التعليل، وبيّن أهمية التخييل وضروبه، وفرّق بين التخييل المتناقض مع الكذب وهو المعتدل غير المتطرف، والتخييل المترادف مع الكذب وهو المغرق المفرط، كما أبرز الفرق بين المعنى التخييلي والمعنى العقلي، فوضع أسسًا جمالية للتخييل تميّزه عن المعنى العقلي والكذب، وتجعل منزلته غير منزلتهما، وهي: أن يكون شبهًا بالحقيقة، تبلغ فيه قوة التعليل درجة عالية، ويحقق للعقل لذّة الكشف والغوص والاستنتاج والتدقيق والتحقيق، فإن لم يخضع للقوانين العقلية والحجج المنطقية كان كذبًا يحتاج إلى العودة لحال الموصوف من أجل إثباته. أما إذا لم يصعب على المتلقي إدراك المقصود من ورائه فإنه يكون مقبولًا مطلوبًا؛ حيث إنه يكسب النص جمالًا لا يمكن للمعنى الحقيقي المجرد من التخييل أن يحققه، لأنه "كالجواهر تُحفظ أعدادها، ولا يُرْجَى ازديادها، وكالأعيان الجامدة التي لا تنمى ولا تزيد، ولا تُربح ولا تُفيد، وكالحسناء/العقيم، والشجرة الرائقة لا تُمتّع بجني كريم". أسرار البلاغة: ص273.

الأمكنة العالية، أنّ الماء سيّال لا يثبت إلا إذا حصل في موضع له جوانب تدفعه عن الانصباب، وتمنعه عن الانسياب، وليس في الكريم والمال شيء من هذه الخلال"([1]).

ومنه كذلك قول المتنبي: [من بحر الوافر]

وما ريحُ الرّياضِ لَها ولكنْ كسَاهَا دَفْنُهُم في التُّرْبِ طِيبَا

وهنا يدّعي المتنبي أن ما يُشَمُّ من طيب الرياض ليس أصلًا فيها، إنما هو لدفن الموتى فيها، فمن رائحتهم الزكية تكتسِي ريح الرياض، وأصل هذا التشبيه، " ثم باعده بالصنعة في تشبيهه وخلع عنه صورته خلعًا "([2]).

ومنه قول الله تعالى: {طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ} [الصافات 65].

في الآية الكريمة تشبيه يعتمد على التخييل؛ لأنه لا يوجد تصور حقيقي ومحدد لشكل رؤوس الشياطين في عالمنا المحسوس؛ ذلك أن الشياطين كائنات غيبية، وشكل رؤوسهم غير معلوم. لذلك، فإن هذا التشبيه يخلق صورة ذهنية مرعبة ومشوهة في أذهان السامعين، تعتمد على ما يستقر في النفس من قبح وبشاعة متعلقة بالشياطين.

وكذلك قوله تعالى: { فَلَمّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وقُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هَذا بَشَرًا إِنْ هَذا إِلّا مَلَكٌ كَرِيمٌ} [يوسف 31] .

فقد جمع الله ليوسف عليه السلام من الحسن والجمال ما جعل النسوة يقلن: ما هذا الذي نراه ببشر، بل هو ملك كريم في حسنه وجماله. والمراد ليس نفي بشريته حقيقة، وإنما تخييلا لتجاوز حدود الجمال البشري المعهود؛ حتى كأنه ليس من جنس البشر، بل هو أشبه بالملائكة في حسنهم ونورهم.

وهكذا فإن التشبيه التخييلي يجعل للشاعر سبيلًا للإبداع واختراع الصور، ويمدّه بالمعاني المتتابعة، فيكون" كالمغترف من عِدٍّ لا ينقطع، والمستخرج من معدن لا ينتهي"([3])؛ ففيه يكون المشبّه به أمرًا لا تقع عليه حواسنا الظاهرة، وإنما ندركه بطباعنا، "وقد عدّ السكاكي، والخطيب، والشرّاح نحو هذا من التشبيه الوهمي، وهذا ما ليس مدركًا بشيء من الحواس الخمس الظاهرة مع أنّه لو أدرك لم يدرك إلا بها، كما في قول امرئ القيس: [من بحر الطويل]

(1)الجرجاني: عبد القاهر، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص267.

(2)الجرجاني: عبد القاهر، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص277، 278.

(3)المصدر نفسه، ص272.

أيقتُلُني وَالمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعي ومسنونةٌ زرقٌ كأنياب أغوال"(1)

وغياب المشبه به عن حواسنا أسبق إلى القلب من المعاينة، من ذلك قول أبي النجم مع هشام بن عبد الملك يصف ابنته (ظلاّمة): [من بحر السريع]

كأنّ ظلاّمةَ أختَ شَيبانْ شيمةٌ ووالداها حَيَّانْ

الرّأسُ قَمْلٌ كلّه وسئبانْ وليس في الرّجلين إلا خَيطانْ

(فهي التي يُذْعَرُ منها الشّيطان)

فأمر هشام له بدنانير وزنها خمسمائة ليجعلها في رجلي ظلامة مكان الخيطين، "ثم قال: أفلا تراه قال: (فهي التي يذعر منها الشيطان) وإن لم يره، لما قرر في القلوب من نكارته وشناعته"(2).

وتزداد قيمة التشبيه البلاغية بشموله عنصر التمثيل(3)، فالتشبيه التمثيلي يكسب النفس أنسًا، وثقة واطمئنانًا إلى المعنى، ذلك لأنه ينقل النفس من العقلي إلى الحسّيّ،

---

(1)شادي: محمد إبراهيم، أساليب البيان والصورة القرآنية دراسة تحليلية لعلم البيان، دار والي الإسلامية، ط1995م، ص 554 ، 555 .

(2)المبرد: أبو العباس محمد بن زيد، الكامل في اللغة والأدب، مؤسسة المعارف، بيروت، الجزء الثاني، ص81.

وقد أورد الأصفهاني في كتابه الأغاني ص237هذه الأبيات هكذا:

كأن ظلامة أخت شيبان يتيمة ووالداها حيّان

الرأس قمل كله وصئبان وليس في الساقين إلا خيطان

تلك التي يفزع منها الشيطان

(3) ظل مفهوم التمثيل عامًا يطلق على كثير من الصور البيانية حتى جاء الجرجاني، فحدد مفهومه، وكشف النقاب عن بلاغته، وإظهار محاسنه، والكشف عن لطائفه وأسراره، وفرق بينه وبين التشبيه الاصطلاحي، وأقرّ حقيقة مفادها أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه، فكل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلًا، ثم تلاه السكاكي، والقزويني وجمهور البلاغيين.

والتشبيه التمثيلي هو ما لا يكون الوجه فيه أمرًا بينًا بنفسه بل يحتاج في تحصيله إلى ضرب من التأويل والصرف عن الظاهر؛ لأن المشبه لم يشارك المشبه به في صفته الحقيقية، ويتحقق ذلك فيما إذا كان وجه الشبه ليس حسيًا، ولا من الأخلاق والغرائز، والطباع العقلية الحقيقية، ولكنه يكون عقليًا غير حقيقي، أي غير مقرر في ذات الموصوف. ومثاله قولهم: هذه حجة كالشمس في الظهور، فقد تم تشبيه الحجة بالشمس من جهة ظهورها، ولكن هذا التشبيه لا يتم إلا بتأوُّل، وذلك أن يقال: حقيقة ظهور الشمس أو غيرها من الأجسام ألا يكون دونها حجاب ونحوه، مما يحول بين العين وبين رؤيتها، والشبهة نظير الحجاب فيما يدرك بالعقول، لأنها تمنع القلب رؤية ما هي شُبهة فيه، كما يمنع الحجاب العين رؤية ما هو دونه؛ لذا توصف الشبهة بأنها اعترضت دون الذي يروم القلب إدراكه، ويصرف فكره للوصول إليه من صحة حكم أو فساده، فإذا ارتفعت الشبهة قيل: هذا ظاهر كالشمس، أي لا يوجد مانع عن العلم به. انظر الجرجاني: عبد القاهر، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص92.

والحسّيّ أسبق حصولًا في النفس من العقلي، فهي أشدّ ألفة له، و أقدم صحبة، "ومعلوم أن العلم الأول أتى النفس أولًا من طريق الحواس والطباع، ثم من/ جهة النظروالروية، فهو إذن أمسّ بها رحمًا، و أقوى لديها ذممًا، و أقدم لها صحبة... وإذا نقلتها في الشيء بمثله عن المدرك بالعقل المحض وبالفكرة في القلب، إلى ما يدرك بالحواس أو يعلم بالطبع وعلى حدّ الضرورة، فأنت كمن يتوسل إليها للغريب بالحميم...فأنت إذن مع الشاعروغير الشاعر إذا وقع المعنى في نفسك غير ممثل ثم مثله كمن يخبرعن شيء من وراء حجاب"(1). ومن أمثلة ذلك قول البحتري يمدح أبا الفضل إسماعيل بن إسحاق: [من بحر الكامل]

دَانٍ إِلَى أَيْدِي العُفَاةِ وَشَاسِعٌ عَنْ كُلِّ نِدٍّ فِي النّدَى وَضَرِيبِ

كَالبَدْرِ أَفرَطَ فِي العُلُوِّ وَضَوءُهُ لِلعُصبَةِ السَّارِينَ جَدُّ قَرِيبِ

إن ما يميزهذا التشبيه التمثيلي المركب تلاحمه بتداخل المعاني فيه و ائتلافها، فلا يصلح أن يكون أحد طرفيه مُستقلًا عن الآخر، وإن التغييرفي صياغته يفقده جماله وتأثيره، هكذا استطاع البحتري بشاعريته أن يتجاوزما يحضرالعين إلى ما يحضرالعقل، واستخدم الخيال التصويري، لإيضاح ما لا يستطيع التعبيرالعادي أن يؤديه، ولرسم صورة إيحائية، أضافتْ جديدًا إلى المعنى، وقوة الإيحاء وسيلة يستطيع الشاعربها أن يضيف إضافات جديدة إلى المعنى المصور، بانتقاله من المدلول العادي للألفاظ إلى المعنى حين يجمع بين المتضادات، ويصورما ليس بو اقع ولا مشاهد، كأنه و اقع مشاهد(2).

ومنه قوله تعالى: { فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِن رَبِّكَ وهم نائِمُونَ . فَأَصْبَحَتْ كالصَّرِيمِ} [القلم: 19، 20]

ففي الآية الكريمة تشبيه تمثيلي يصورعاقبة الطمع في صورة محسوسة ملموسة؛ إذ إنّ أصحاب البستان قد أقسموا على صرم ثماره لا يستثنون منه شيئًا، مستعجلين غير متريثين ولا مبطئين، غافلين عن قدرة الله تعالى المتحققة في الكون، فلا يحدث في كونه إلا ما أراده سبحانه. لقد قدّروا، ورغبوا، واستعجلوا، فأحاط الله بهم، و أنزل ببستانهم ما أنزل، فصار رمادًا.

وكذلك قوله تعالى: { كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالحَقِّ وإِنَّ فَرِيقًا مِنَ المُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ . يُجادِلُونَكَ فِي الحَقِّ بَعْدَما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إلى المَوْتِ وهم يَنْظُرُونَ} [الأنفال: 5، 6]

(1) الجرجاني: عبد القاهر، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص 122.

(2)انظر شبايك: عيد محمد، التشبيه المستطرف: رؤية نقدية2/1، حقوق النشر محفوظة لموقع الألوكة1434هـ، 2013م.

ففي قوله تعالى: (يُجادِلُونَكَ فِي الحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلى المَوْتِ وهم يَنْظُرُونَ) تشبيه تمثيلي؛ حيث شبّه حالة فريق من المؤمنين كرهوا الخروج للقتال ــ وهو الحق الذي تبيّن لهم وجوبه ــ وترددوا فيه، وخافوا منه، بحالة من يُساق ويُدفع إلى الموت دفعًا وهو يراه، ويعاينه، ويشاهده أمام عينيه.

وللتشبيه مقاصد بلاغية متنوعة [1] تدوربين مستويين من الأداء في إنتاج المعنى؛ أحدهما يعود إلى المشبه، والآخر يعود إلى المشبه به، فأما ما يعود إلى المشبه، فيأتي على ست صور:

الأولى: بيان حالة المشبه

وذلك إذا كانت صفة (المشبه به) معلومة، وصفة (المشبه) مجهولة، أو في حكم المجهولة، فيساق التشبيه تمكينًا لذهن المتلقي من إدراك المشبه وتصوره، كما في قول النبي: {صلى الله عليه وسلم}: {مثل المؤمن كالنحلة لا تأكل إلا طيبًا ولا تُطعم إلا طيبًا} [صحّحه الشيخ الألباني، ينظر: صحيح الجامع، برقم: (5847)]. ففي الحديث بيان حالة المؤمن وفضله، حيث لا يأكل إلا طيبًا، ولا يصدر منه ما يضرّ الناس، بل ينفعهم.

ومنه قول المتنبي: [من بحر الطويل]

وَما المَوتُ إِلا سارِقٌ دَقَّ شَخصُهُ يَصولُ بِلا كَفٍّ وَيَسعى بِلا رِجْلِ

ففيه بيان حالة الموت و إبطاله الأرواح كالسارق الذي لا يمكن الاحتراس منه لدقة شخصه.

ومنه قول الله تعالى: { فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةً كَٱلدِّهَانِ} [الرحمن: 37]

لبيان حالة السماء التي تصير عليها يوم القيامة كان التشبيه بقوله تعالى: (فَكَانَتۡ وَرۡدَةً كَٱلدِّهَانِ)؛ أي أن انشقاق السماء وتحوّل هيئتها إلى وردة ــ وهي حالة جديدة حاصلة لها ـ كأنها حالة حاصلة منذ القدم.

(1)راجع الرازي: فخر الدين، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تعليق نصر الله حاجي، دار صادر بيروت، ط1، 2004م، ص122 وما بعدها. وكذلك راجع التفتازني: سعدالدين، شروح التلخيص، مصدر سابق، ج3، ص390وما بعدها. وكذلك راجع الجندي: علي، فن التشبيه، مرجع سابق، ج1، ص200 وما بعدها.

الثانية: بيان مقدار التشبيه

وذلك من حيث القوة والضعف، والزيادة والنقص وما إليها، ولا بد أن يكون المشبه معروف الصفة بوجه عام. ويأتي التشبيه بعد ذلك لتحديدها، فإن كانت مجهولة أصالة كانت لبيان الحال لا لبيان المقدار، من ذلك قول الأعشى: [من بحر البسيط]

كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا مَرُّ السَّحَابَةِ، لاَ رَيْثٌ وَلاَ عَجَلُ

فهو ينص على مشية معينة يحيط ذهن المتلقي بصورتها، وتشبّه المرأة بالسحابة لتهاديها وسهولة مرّها، جعلها متميزة من بين المشيات جميعًا، وبهذا بدت الصورة واضحة بعد أن كانت شيئًا يُلمح في جملة أشياء تنازعه الوجود.

ومنه قوله تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} [النمل: 87، 88]

والمقصد البلاغي من التشبيه في الآية الكريمة هو بيان مقدار التشبيه. والتقدير: وترى الجبال تمرّ مرًّا حثيثًا مثل مرِّ السحاب؛ وذلك للتركيز على حدث مرور الجبال بعينه دون زمانه.

الثالثة: تقرير حال المشبه

وهو نوع من بيان الحال، ولكنه بيان على وجه التمكين، بتوضيح حال المشبه في ذهن المتلقي، وتقوية شأنها وتوكيدها في خاطره، وأكثر ما يكون هذا المقصد بتشبيه المعنويات بالحسّيّات المشاهدة، كما في قول ابن المعتز: [من بحر الطويل]

وَيَجْرَحُ أَحْشائِي بِعَيْنٍ مَرِيضَةٍ كَما لانَ مَتْنُ السَّيْفِ وَالحَدُّ قاطِعُ

فجرح الأحشاء بالعين المريضة معنى دقيق يلطف على بعض الأذهان، حتى ليتعجب من حقيقته، أو يشك فيها. ثم إن الصورة ــ على تبيُّنها للمتلقي الخبير ــ عليها من ظلال الخفاء لأنها تتخيل وتحس، وتلمح بالفكر لا بالبصر، فإذا جاء التشبيه وصبّها في قالب حسي وضحت معالمها فارتسمت في شبكة العين، ونقشت في صحيفة الذهن، وأصبح مقبولا معقولا مسلمًا أن تجرح العين بجفنها الفاتر وطرفها الناعس، لأن السيف لا يمنعه لين متنه أن يحز الرقاب بنصله الحاد (1).

(1) انظر الجندي: علي، فن التشبيه، مرجع سابق، ج1، ص205.

ومنه قوله تعالى: {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ} [البقرة: 223].

والمقصد البلاغي من التشبيه في الآية الكريمة هو تقرير حال المشبه؛ تنبيهًا على أنّ المأتى واحدٌ، وهو القُبُل بوصفه مزدرعًا، وفيه تنبيه لئلا يتوهّم أحد أنّ قوله تعالى: {فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}، يبيح الإتيان في الدُبُر، وإنما المراد: باشروهن من أي جهة أردتم، ومتى أردتم، ولكن في موضع الحرث؛ إذ إنّ الدبر لا يحترث فيه.

وقد ذكر البلاغيون العلة في استرواح النفس إلى هذا النوع من التشبيه، وأشادوا بقيمته البيانية في إسهاب عليه طابع علم النفس، فقالوا: إن المعاني العقلية وإن كانت ثابتة مقطوعًا بها متيقنة، خلا أن التمسك بالمحسوسات والتعويل عليها في المشابهة أولى وأحق، لكونها تفيد زيادة قوة، مزيد إيضاح، لما يحصل لها من الوثاقة واطمئنان النفس إليها، وانشراح الصدر بها ([1]). ويجب أن يفطن إلى دقة الفرق بين ما جاء لتقرير حال المشبه، وبيان مقداره. فما فيه بيان المقدار إن قصد من حيث التقرير؛ لما فيه من قوة الظهور والتمام، كان من التقرير. وإن قصد من حيث مجرد فهم الكيفية، كان من بيان المقدار. فمثلا قول الحسن بن وهب: [من بحر الوافر]

مدادٌ مثلُ خافيةِ الغراب وقِرطاس كرَقْراق السَّرابِ

يصح أن ينظر فيه إلى مبلغ السواد في الغراب، والتلألؤ والاضطراب في السراب فقط؛ فيكون لبيان مقدار الحال، ويصح أن ينظر فيه إلى ما خلعه المشبه به على المشبه؛ من توكيد ووضوح فيكون للتقرير ([2]).

الرابعة: بيان إمكان المشبه

وذلك إذا كان المعنى غريبًا يتوقع أن يخالف فيه ويدعى امتناعه، فيؤتي بالتشبيه دليلا على إثباته بأن تلحق الحال التي تقابل بالإنكار بحال مسلمة الإمكان لوقوعها. ومن شواهد ذلك قول المتنبي يمدح سيف الدولة: [من بحر الوافر]

فإنْ تَفُقِ الأنامَ وأنْتَ مِنهُمْ فإنّ المسكَ بَعضُ دَمِ الغزالِ

يريد أن الممدوح قد فاق الخلق جميعًا بحيث لم يبق بينه وبينهم مشابهة ومقاربة، بل صار أصلا بنفسه، وجنسًا برأسه، وهذا في الظاهر كالممتنع؛ لاستبعاد أن تتناهى بعض آحاد

(1) انظر المرجع نفسه، والجزء نفسه، ص207.

(2)انظر المرجع نفسه، والجزء نفسه، ص211 ،212.

النوع في الفضائل الخاصة به إلى أن يصير كأنه ليس منها، فاحتجّ لهذه الدعوى وبين إمكانها: بأن شبّه حاله بحال المسك الذي هو من الدماء، ثم إنه قد خرج عن صفة الدم وحقيقته، حتى لا يعدّ في جنسه؛ إذ لا يوجد في الدم شيء من الصفات الشريفة التي للمسك (1). ويسمى هذا النوع من التشبيه ضمنيًّا؛ لأنه يفهم من الكلام ضمنيًّا، ومكنيًّا عنه لأنه مستتروخفي، لا يأتي على صور التشبيهات المعروفة غالبًا، بل يلحظ في تضاعيف الكلام.

من ذلك قوله تعالى: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ} [الرعد: الآية17].

فقد عقدت الآية تشبيهًا بين الحقّ والماء، واحتجت لإمكان هذا التشبيه بأن إنزال الماء تكون به الحياة و إنزال القرآن يكون به الهُدى، وكذلك عقدت التشبيه بين الزبد والباطل، وبين قلوب الناس والوديان. واحتجت بإمكان هذا التشبيه بأن نزول الآياتِ ينتفِعُ به مَنْ ذاق حلاوة الإيمان، ويُعرِض عنه من زاغت قلوبهم، فنزول الماء على الجبال والتّلال وجريانه في الوديان، ينتج عن اندفاعه حدوث غثاءٍ لا ينفع أحدًا، ثمَّ لم يلبث أن يفنى، ويبقى الماء النافع.

الخامسة: تزيين المشبه أو تقبيحه (2)

وذلك بربطه بمشبّه به حسن أو قبيح، فتميل إليه النفوس أو تميل عنه؛ فأما تزيين المشبه، فيكون بتحسين شيء تختلف فيه أهواء النفوس، كسواد النساء وطولهن، فإن بعض الناس يتعشقه، أو لا ينفر من على الأقل، وكالشُّقرة والبدانة إلى غير ذلك مما يعسر أن تجتمع عليه الطباع، والأمزجة، والأذواق. فمن ذلك قول ابن قلاقس الأسكندري: [من بحر الخفيف]

رُبّ سوْداءَ وهيَ بيضاءُ معنى نافَسَ المِسك في اسمِها الكافورُ

مثلُ حبِّ العُيون يَحْسبهُ النّا سُ سوادًا و إنما هوَ نورُ

ومنه قوله تعالى: {يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ } [المطففين: 25، 26].

(1)انظر الرازي: فخر الدين، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، مصدر سابق، ص123. وكذلك التفتازني: سعدالدين، شروح التلخيص، مصدر سابق، ج3، ص396. وكذلك الجرجاني: عبد القاهر، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص123.

(2)راجع الجندي: علي، فن التشبيه، مرجع سابق، ج1، ص223: 236.

فالمقصد البلاغي من التشبيه في الآية الكريمة هو تزيين المشبه. والتقدير: يسقون من رحيق مختوم ختامه كالمسك في طيب نكهته، فلا تنقطع لذتهم بعد انتهائهم من الشرب، و إنما لذتهم مكتملة متصلة.

وأما تقبيح المشبه، فيكون بتشويهه؛ تنفيرًا منه أو تحقيرًا له، ومبالغة في الذم، بأنْ تصوّرَه بصورةٍ تمجُّها النفسُ، ويشمئزُّ منها الطبعُ، كقول الشاعر: [من بحر الطويل]

لها جِسم بُرْغوث وساقا بَعُوضةٍ ووَجْهٌ كَوَجْه القِرْد أو هو أقْبَحُ

ومنه قوله تعالى: { وإنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كالمُهْلِ يَشْوِي الوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وساءَتْ مُرْتَفَقًا} [الكهف 29].

والمقصد البلاغي في الآية هو تقبيح المشبه؛ فبدلاً من أن يُغاث أهل النار بالماء الذي يطفئ الظمأ، ويجلب الراحة، يُغاثون بماء في غاية الحرارة والخبث لدرجة أنه يشوي وجوههم بمجرد الاقتراب منهم. هذا التصوير البشع يهدف إلى إبراز مدى الهول والعذاب الذي ينتظر الكافرين يوم القيامة.

السادسة: استطراف المشبه

أي جعل المشبه طريفًا لجدّته وغرابته، بغية التلذذ به، وذلك يكون بحسن الجمع بين أعناق المتباينات والمتنافرات في رِبْقة، و أفضل التشبيهات، تلك التي يكون وجه الشبه فيها غريبًا غامضًا، فـ"ما شرُفت صنعة، ولا ذُكر بالفضيلة عملٌ، إلا لأنهما يحتاجان من دِقّة الفكر، ولطْف النظَر، ونَفاذ الخاطر، إلى ما لا يحتاج إليه غيرهما...ولا يقتضيان ذلك إلا مِن جِهَة إيجاد الائتلاف في المختلفات"(1).

ومن أمثلة الصور التي يقرن فيها الشعراء بين الأشياء المتباعدة بقوة خيالهم ونفادهم في صميم الأشياء قول ذي الرمة الذي يجمع فيه بين رأس بعيره وقبر المرء من قوم تبع:

[من بحر الطويل]

وَرَأسٍ كَقَبرِ المَرءِ مِن قَومِ تُبَّعٍ غِلاظٍ أَعاليهِ سُهولٍ أَسافِلُه

وكذلك قول طرفة مشبهًا العقاب حين يدف بجناحيه مع الصبح بشيخ في بجاد مزمل:

[من بحر الطويل]

وعجزاءَ دفّتْ بالجَناحِ كأنّها مع الفجرِ شيخٌ في بجادٍ مقنَّعُ

(1)الجرجاني: عبد القاهر، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص148.

وقول المتنبي في انبثاق الصباح: [من بحر المنسرح]

كراهبٍ جُنَّ للهوى طربًا فشقّ جِلبَابَه مِنَ الطَّرَبِ

وهكذا إلى غير ذلك من الصور التي يجتهد فيها الشعراء لإبراز العلاقات الكامنة بين الأشياء المتباعدة "(1).

ومنه قوله تعالى: { ويَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إذا رَأيْتَهم حَسِبْتَهم لُؤْلُؤًا مَنثُورًا} [الإنسان 19]. وقوله تعالى: { ويَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهم كَأنَّهم لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ} [الطور 24].

فالمقصد من تشبيه خدم أهل الجنة باللؤلؤ المنثور تارة، واللؤلؤ المكنون تارة أخرى؛ استطراف هيئتهم في الحسن والبياض والصَّفاء، فهم كاللؤلؤ المخزون في بهائه وصفاء لونه، والمنثور في حسن منظره حين تسقط أشعته المتلألئة اللامعة بعضها فوق بعض.

وتتلخص مقاصد التشبيه البلاغية للمستوى الثاني الذي يعود إلى المشبّه به، في صورتين:

أولاهما: يكون فيها المشبَّه مشبَّهًا به بادِّعاءِ أنَّ وجه الشبه فيه أَقوَى وأظهر؛ ليتوهم المتلقي أن المشبّه به المقصود بالمبالغة أتمّ في وجه الشبه من المشبّه الذي أصله مشبّه به، اعتمادًا على القاعدة المقررة: من أنّ الوجه في المشبّه به أتمّ. ويسمَّى ذلك بالتشبيهِ المقلوبِ أو المعكوسِ، كقول البحتري يصف نافورة المتوكل: [من بحر البسيط]

كَأَنَّها حينَ لَجَّت في تَدَفُّقِها يَدُ الخَليفَةِ لَمّا سالَ وادِيهَا

فالبحتري يصف هذه النافورة في تدفقها بأنها تشبه يد الخليفة. ومنه قول أبي نواس في وصف فتاةٍ: [من بحر البسيط]

وَ اِبنُ الرَشا لَم يُخطِها شَبَهًا بِالجيدِ وَالعَينَينِ وَاللَبَبِ

و ابن الرشا هو الغزال، ويشبهه الشاعر بالمحبوبة، ويقول إنّه لم يتخطاها في جمال العينين والجيد، ومعلومٌ أنّ الشعراء اعتادوا على وصف محبوباتهم بالغزلان والريم، والشاعر هنا يقلب التشبيه. ومنه قول محمد بن وهيب يمدح المأمون (2): [من بحر الكامل]

وبَدَا الصَّباحُ كأنَّ غرَّتَهُ وَجْهُ الخَليفةِ حِينَ يُمْتَدَحُ

(1)راجع أبو موسى: محمد، التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، مكتبة وهبة، ط3 ،1993م، ص103 وما بعدها. وكذلك انظر الجندي: علي، فن التشبيه، مرجع سابق، ج1، ص252.

(2)انظر التفتازاني: سعدالدين، مختصر التفتازاني، ضمن شروح التلخيص، مصدر سابق، ج3، ص408.

شــبَّهَ غرَّةَ الصــباح بوجهِ الخليفةِ، إيهامًا أنه أتمُّ منها في وجه الشَّــبه، "وهذا أبلغ وأحسـن من تشـبيه الوجه بالصـباح، لأن تشـبيه الوجه بالصـباح أصـل متفق عليه لا ينكر ولا يستنكر، و إنما الذي يستنكر تشبيه الصباح بالوجه"([1]).

ثانيتهما: وفيها بيان اهتمام المتكلم بالمشـبّه به، كأن يشـبه الجائع وجه حبيبته بالرغيف في الاسـتدارة، والاسـتلذاذ به؛ ليدل بهذا التشـبيه على اهتمامه بالرغيف، و أنه لشـدّة جوعه لا يغيب عن خاطره، ويسـمّى هذا التشـبيه (إظهار المطلوب)، ولا بدّ في مثل هذا من قرينة توضـح قصـد المتكلم، والقرينة هنا عدوله عن تشـبيه الوجه بما يناسـبه إلى التشـبيه بغير المناسـب، كما في المثال المذكور([2]). وبهذا الفَهْم يكون التشـبيه وسـيلة كشـف لجوانب خفيّة من الأشياء بالنسبة للشاعر الذي يدرك، والقارئ الذي يتلقى.

(1)الحلبي: شهاب الدين، حسن التوسل إلى صناعة الترسل، مطبعة أمين أفندي بمصر، ط1315هـ، ص27.

(2)انظر عوني: حامد، المنهاج الواضح للبلاغة، المكتبة الأزهرية للتراث، ج1، ص84.

(2)
البنى النّحويّة للتشبيه في السّياق القرآنيّ

لا شكَّ أنَّ البنية النّحويّة للتشبيه لها أهمّيَّتُها و أثرُها في سياق المعنى؛ وذلك حين تؤلّف بين الأشياء المتنافرة والأجزاء المتباينة، ثم تنتقل من التنافر والتباين المعجمي إلى التكامل السّياقي، وتتحرر فيها الدلالة من إطارها الضيِّق لتتَّجه نحو الاتساع والمجاز. وقد تعدَّدت البنى النّحويّة في السّياق التشبيهي القرآني ما بين بنية إسناد (اسمي، وفعلي)، وبنية نفي مسبوقة بـ (لا، أو ليس) أو مسبوقة بهمزة استفهام، وبنية نهي، وبنية وصف، وبنية حال.

أولاً: بنية الإسناد

تعدّ بنية الإسناد بؤرة التركيب النحوي والبلاغي؛ فهي تربط بين ركني الجملة الاسميَّة في البناء الاسمي، وبين ركني الجملة الفعليَّة في البناء الفعلي، على أساس من علاقات الارتباط التي يُنشئها المتكلم في سياق معين لغرض ما. و" القاعدة العامَّة التي تحكم تركيب الجملة أنَّ كلَّ علاقة تزيد في الجملة على علاقة الإسناد إنَّما ينشئها المتكلِّم للبيان، وإزالة إبهام وغموض قد يعتريان المعنى الدِّلالي للجملة إنْ لم ينشئ المتكلِّم تلك العلاقة، وكلُّ حذف لعلاقة إنَّما يكون حين لا يحتاج المعنى الدِّلالي إلى دلالة تلك العلاقة؛ وهذا كلُّه خاضع لسياق المقام وغرض المتكلِّم، ومعيار الذِّكر والحذف هو وضوح المعنى الدِّلالي الذي يراه المتكلِّم معبِّرا عن غرضه في سياق معيَّن"[1].

ولبنية الإسناد التشبيهي في السياق القرآني صورتين؛ صورة الإسناد الاسمي، وصورة الإسناد الفعلي، وهما على النحو التالي:

الإسناد الاسمي

يأتي الإسناد التشبيهي الاسمي على حالين؛ الأولى يكون فيها المشبّه به خبرًا للمشبّه، والثانية يكون فيها المشبّه به في حكم الخبر للمشبّه. فأما الحالة الأولى، فيكون الأصل في طرفي التشبيه المبتدأ والخبر؛ نحو قولنا: (زيدٌ أسدٌ)،" لأنك حين أوقعت (أسدًا) وهو مفرد

(1) Rızk, Muhammed. الإسناد بين النَّحو وعلم المعاني. Hitit Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Dergisi 18/35 (June 2019), 315-335. https://doi.org/10.14395/hititilahiyat.511374.

غير جملة خبرًا (لزيدٍ) استدعى أن يكون هو إياه، مثله في (زيد منطلق) في أنّ الذي هو (زيد) بعينه (منطلق)، وإلا كان (زيد أسد) مجرد تعديد نحو (خيل فرس) لا إسنادا، لكن العقل يأبى أن يكون الذي هو إنسان هو بعينه أسدا، فيلزم لامتناع جعل اسم الجنس وصفا للإنسان حتى يصح إسناده على المبتدأ المصيرعلى التشبيه بحذف كلمته قصدا على المبالغة، وإذا عرفت أن وجود طرفي التشبيه يمنع عن حمل الكلام على غير التشبيه عرفت أن فقد كلمة تشبيه لا تؤثر إلا في الظاهر، وعرفت أن نحو: (رأيت بفلان أسدا)، و(لقيني منه أسد)، و(هو أسد في صورة إنسان)، و(إذا نظرت إليه لم تر إلا أسدا)، و(إن رأيته عرفت جبهة الأسد)، و(لئن لقيته ليلقينك منه الأسد)، و(إذا أردت أسدا فعليك بفلان)، و(إنما هو أسد)، و(ليس هو آدميا بل هو أسد) كل ذلك تشبيهات"(1). ومن ذلك قول المرقّش الأكبر:

[من بحر السريع]

النَّشْرُ مِسْكٌ والْوُجُوهُ دَنَا نِيرُوَأَطْرَافُ الأَكُفِّ عَنَمْ

في هذا البيت جاء المبتدأ والخبر أصلا في طرفي التشبيه؛ وذلك قوله: (النشرُ مسكٌ)، وقوله: (الوجوه دنانيرُ)، وقوله: (أطرافُ الأكفِّ عنمُ)، وهذه التشبيهات الثلاثة هي من التشبيه البليغ؛ إذ لم يذكر الشاعر فيها أداة التشبيه ولا وجه الشبه؛ دلالة على الوحدة بين طرفي التشبيه، فالمشبه هو المشبه به ذاته. وقد تقدّم المبتدأ على الخبر فيها للدلالة على التخصيص والتحقيق؛ فقد أراد الشاعر أن يخصّ نساء قومه في جمالهن بثلاثة تشبيهات أنيقة بليغة على وجه التحقيق واللزوم؛ إذ تضوع منهن رائحة المسك حين يقبلن عليه، بوجوه ناضرة مضيئة ناعمة لامعة، وبأطراف أنامل لطيفة حمراء مزهرة.

ومن أمثلة الإسناد الاسمي التشبيهي في السياق القرآني، الذي فيه المشبّه به خبر للمشبه، قوله تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ} [البقرة: 187].

وسياق الآية سياقٌ حانٍ يبيح للمسلمين ما كانوا قد مُنعوا منه في ليلة الصيام إذا ناموا بعد الإفطار؛ وهو مباشرة نسائهم ما بين المغرب والفجر، وكذلك الطعام والشراب. وموضع

(1)السكاكي: أبو يعقوب، مفتاح العلوم، ضبطه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط2، 1407هـ، 1987م.

الشـــاهد في الآية الكريمة قوله تعالى: {هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ}؛ حيث شـــبّه كلًا من الزوج والزوجة بالثياب، فكلاهما دثار للآخر، يستر حاله ويقيه، ويحميه.

وفي قوله تعالى: {هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ}، كلٌّ من الزوج والزوجة مبتدأٌ، ولباسٌ خبرٌ لهما، وكلاهما؛ أي المبتدأ والخبر، مشـبّه ومشـبّه به، وهو تشـبيه بليغ حذفت أداته ووجه الشبه فيه؛ دلالةً على أن المشبه هو المشبه به ذاته، فالزوج لباس زوجته، ودثارها، وساترها، وواقيها، والزوجة كذلك. وفي هذا تأكيدٌ على ضـرورة الامتزاج، والتلازم، والانسـجام بين الزوجين؛ حتى يصير كلُّ واحدٍ منهما للآخر لباسًا يستر صاحبه عن أعين الناس، وعمّا لا يحلُّ. و اقتضـى سـياق الآية تقديم ذكر الزوجة وعطف الزوج عليها؛ تنبيهًا إلى شـدّة احتياج الزوج لزوجته، وقلّةِ صـبره عنها، ولأن الرجل هو البادئ بطلب العلاقة، فقد جاء الخطاب إليه بضمير المخاطب، وكنّى عن المرأة بضمير الغائب؛ لغلبة الحياء على أكثرهن في طلب المعاشرة. وقد أفرد الخبر (لباس)؛ تنمية للمروءة بين الزوجين، وتربيتهما على الخصـوصـية، وصـيانة أسرارهما، لا سيما ما يقع بينهما حالة الاستمتاع والمعاشرة. والمقصد البلاغي من التشبيه في الآية الكريمة هو بيان حال المشبه.

ومنه قوله تعالى: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} [البقرة: 18].

وسـياق هذه الآية يكشـف عن طبيعة المنافقين وتقلباتهم، وتذبذبهم بين أهل الكفر والإيمان لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وتأتي الآية ضـمن سـياق طويل يكشـف عن ألاعيبهم ومكائدهم لإيذاء المسـلمين في المدينة. وقد اقتضـى السـياق أن يكون المقام مقام توبيخ لهم؛ ذلك أن إعراضـهم عن الهدى والإيمان لم يكن ابتداء كما فعل المشـركون، ولكنّهم آمنوا ثم كفروا، واسـتحبوا الكفر على الإيمان، واسـتحبوا العمى على الهدى بعدما اسـتوضـحوا الأمر وتبيّنوه، فمثلهم كمثل الذي اسـتوقد نارا فلما أضـاءت ما حولهم، ذهب الله بنورهم، وتركهم في ظلمات لا يبصرون؛ صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون عن غيّهم وضلالتهم.

وفي قوله تعالى: {صُـمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ}، كلٌّ من هذه الصـفات الثلاث أخْبارٌ لِمبتدإ محذوف تقديره: (هم) راجع على المنافقين. وكلاهما ــ أي المبتدأ والخبر ــ مشبّه ومشبّه به، وهو تشـبيه بليغ حذفت أداته ووجه الشـبه فيه؛ دلالةً على أنّ المشـبّه هو المشـبّه به ذاته، فذوات المنافقين هي ذوات الأشـخاص الصُّـمّ البُكم العُمي. وقد اقتضـى سـياق الآية الوصـل؛ تنبيهًا إلى أن الأمر لا يفهم منه أنّ بعض المنافقين كالأصـم، أو أنّ بعضـهم كالأبكم، أو أنّ بعضـهم كالأعمى، و إنما كلّ واحد منهم أصـمّ أبكم أعمى، ومن اجتمعت له تلك الصـفات

انعدم منه الفهم والإفهام، وتعذر رجوعه إلى الصواب والرشد، فهم لا يرجعون (1). ولما كان المقام مقام توبيخ، انطوى ذكرهم في سياق الآية؛ تحقيرًا لشأنهم، فكأنّهم من فرط شهرتهم بهذه الصفات، صاروا أعلامًا لها، وبالتالي لا حاجة لذكرهم، فهم معروفون لدى السامع. ومن بدائع هذا التشبيه أنه ابتدأ صفات المنافقين بالصّمم الذي يترتب عليه بقية الصفات؛ فهم حين يسمعون القرآن من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويعرضون عنه، ويصمّون أسماعهم عن الحقّ، كان من الطبيعي أنّهم إذا سُئلوا لا يستطيعون جوابًا كأنّهم بُكْمٌ، ولأنّهم لم ينتفعوا بما جاء من الحقّ، فهم بمنزلة العُمي لا يرجعون عن ضلالتهم، ولا يهتدون إلى نور الحق. والمقصد البلاغي من التشبيه في الآية الكريمة هو تقبيح المشبه.

ومنه قوله تعالى: {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ} [البقرة: 223].

وسياق الآية ضمن سياق يتحدث عن مباشرة النساء وقت المحيض، ومن ثمّ اقتضى التعبير القرآني أن يشير إلى أن اللذة المركبة في ابن آدم هي وسيلة وليست غاية؛ وسيلة لتحقيق هدف النماء واستمرار الحياة، وفق قانون إلهي يصرف الفطرة السليمة عن وضع الغرس في غير موضعه. ولأن الغاية هي المحافظة على استمرار الحياة بالإخصاب والتوالد، وليست لذة المباشرة في المطلق؛ كان الأمر بإتيان الحرث بالطريقة التي نشاء في موضع الإخصاب دون سواه.

وفي قوله تعالى: {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ}، نساؤكم مبتدأ، وحرثٌ خبر. وكلمة نساء جمع للمرأة من غير لفظها، وهي اسم للبالغات، ويرادفها نسوة ونسوان، و اقتضى سياق الآية أن تأتي كلمة نساء مصدرًا وزنه فِعَال، وهو وزن يفيد وقوع الحدث دون تقييد بزمانٍ؛ ماضٍ، أو حاضرٍ، أو مستقبلٍ، وذلك يتناسب مع قوله: (فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ)، فللرجال أن يأتوا نساءهم متى شاءوا، وفي هذا دعوة للمباسطة بين الزوجين، وعدم التكلف بينهما؛ ذلك أن الشرع قد ربط بينهما بكلمة من الله ليس لإشباع الشهوة فقط، و إنما لغرض أسمى هو المودة والأنس الروحي، الذي تزول معه أعباء الحياة، لتعاود القيام بما كلّفت به؛ ولهذا أضيفت كلمة نساء إلى ضمير المخاطبين في كلمة واحدة، دلالة على أنهن قطعة من الرجال، والعكس. كما اقتضى السياق إفراد كلمة(حَرْث)؛ تنبيهًا على أنّ المأتى واحدٌ، وهو القُبُل بوصفه مزدرعًا، وفيه تنبيه لئلا يتوهّم أحد أنّ قوله تعالى: {فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ}، يبيح الإتيان في

(1) انظر ابن عاشور: الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر ـ تونس، ط 1984 هـ، ج 1، ص313.

الدُبُر، و إنما المراد: باشـــروهن من أي جهة أردتم، ومتى أردتم، ولكن في موضـــع الحرث؛ إذ إن الدبر لا يحترث فيه.

وقد شـــبَّه مباشـــرة الرجال لنســـائهم في موضـــع الإنجاب بإتيانهم الأرض يريدون حرثها، وذلك على سـبيل التشـبيه البليغ، و اقتضـى السـياق طي كلّ من أداة التشـبيه ووجه الشـبه؛ لإفادة المبالغة في أنّ المشـــبّه هو المشـــبّه به ذاته؛ فكما أنّ المرأة هي منبت الإنســـان، الذي به يســـتمر النســـل ويعمر الكون، فإنّ الأرض هي منبت لغذائه الذي يتقوى به، ويحافظ به على بقاء نسـله. وكما أنّ الأرض هي مسـتودع الحبّ والبذر، فإنّ رحم المرأة هو مسـتودع النطفة؛ ولهذا كان التشـبيه بالحرث دلالة على المزدرع، فالأرض تحتاج للتهيئة و إثارة تربتها لغرس البذر، وكذلك الزوجة تحتاج للمداعبة والإثارة بوصـفها مقدمات للعلاقة الحميمية لغرس النطفة، وهذا يتناسـب مع قوله تعالى: (وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِـكُمْ). والمقصـد البلاغي من التشـبيه في الآية الكريمة هو تقرير حال المشبه.

وأما الحال الثانية فيكون الأصـل في طرفي التشـبيه المبتدأ والخبر بعد دخول النواسـخ الحرفية أو الفعلية عليهما؛ نحو قولنا: إنّ زيدًا أســـدٌ، وقولنا: كان زيدٌ أســـدًا. ومنه قول البحتري يصف بَرْقَ السحابة بتبسُّم ممدوحه: [من بحر الطويل]

كَأَنَّ سَنَاهَا بِالْعَشِيّ لِصُبْحِهَا تَبَسُّمُ عِيسَى حِينَ يَلْفِظُ بِالْوَعْدِ

شـبّه سـنا السـحابة بتبسّـم ممدوحه عيسـى، وفي هذا التشـبيه نجد المشـبّه به في حكم الخبر للمشـبّه، وذلك قوله: (كَأَنَّ سَـنَاهَا بِالْعَشِـيّ لِصُـبْحِهَا تَبَسُّـمُ عِيسَى)، وأصـله: (إنّ سَـنَا السّحابةِ كتَبَسُّـمِ عِيسَى)، فالكاف هنا تشـبيه صـريح، وهي في موضـع الخبر تتعلق بمحذوف تقديره: (إنّ سَـنَا السّحابةِ كائنٌ كتَبَسُّـمِ عِيسَى)، ثم أراد الشـاعر عقد هذه المشـابهة، فأزال الكاف من وســط الجملة وقدّمها إلى أولها؛ لإظهار فرط الشــبه بين ســنا الســحابة وتبسّــم ممدوحه، فكأنّ الســنا هو التبســم ذاته. وروعة هذا التشــبيه تأتي من الصــورة المركبة فيه؛ حيث شـبَّهَ برق السـحابة بتبسـم عيسـى، إيهامًا أنه أتمُّ منها في وجه الشَّـبه؛ أي أنه جعل تبسُّـم ممدوحه عيسـى كأنّه أتم في النور والضـياء من برق السـحابة، فاسـتقام له بحكم هذه النّيّة أن يجعل البرق فرعًا، وتبسّم ممدوحه أصلًا، ووجهته في ذلك الادّعاء والمبالغة.

ومن أمثلة الإسـناد الاسـمي التشـبيهي في السـياق القرآني، الذي فيه المشـبّه به في حكم الخبر للمشبه، قوله تعالى: {كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ} [الرحمن: 58].

وسـياق الآية يأتي ضـمن سـياق عام يصـف رفاهية أصحاب الجنة، وما أعدّ الله لهم من نعيم مقيم؛ فهم في جنتين ذواتي أغصـــان نضـــرة، وماء غزير، وفاكهة وفيرة، وثمار دانية،

وفرش بطائنها من الحرير، ولهم ــ فوق كلّ ذلك من الرفاهة ــ حورعفيفات الحسّ والمشاعر، لم يمسسهن قبلهم إنس ولا جنّ، "فهنَّ كالياقوت الذي يكون في معدنه، والمرجان المصون في صدفه لا يكون قد مسَّه يد لامس"(1). وذلك الجزاء كله لمن خاف مقام ربه، فعبده كأنّه يراه، حتى بلغ مرتبة الإحسان، وهي أعلى مراتب الدين؛ ومن ثمّ كان الجزاء من جنس العبادة عطاءً من الله وإحسانًا.

وفي قوله: {كَأَنَّهُنَّ الياقُوتُ والمَرْجانُ} كأنَّ حرف معناه التشبيه، وهو من النواسخ الحرفيّة، وهو مركب من كاف التشبيه وأنّ. والكاف هنا تشبيه صريح، وهي في موضع الخبر تتعلق بمحذوف تقديره: إنّ الحورَكائنةٌ كالياقوتِ والمرجانِ، ثم أراد عقد هذه المشابهة، فأزال الكاف من وسط الجملة وقدّمها إلى أولها؛ لإظهارفرط عنايته بالتشبيه المنعقد. والتشبيه بكأنّ الدّاخلة على المشبَّه به لا تفيد من المبالغة ما تفيده الدّاخلة على المشبَّه؛ فمن حيث المعنى، إذا قيل: الحوركالياقوت والمرجان، كان معناه: الحوريشبهن الياقوت والمرجان، وإذا قيل: كَأنَّ الحور الياقوت والمرجان، فمعناه أنّهنّ هنّ الياقوتُ والمرجانُ حقيقةً، لكنَّ قولنا: الحوريشبهن الياقوت والمرجان ليس فيه هذه المبالغة، ولا يمكن حمله على الحقيقة. أما من حيث اللفظ، فإذا دخلت الكاف على المشبَّه به، وقيل: إنَّ الحور كالياقوت والمرجان، عملت الكاف في الياقوت والمرجان عملا لفظيًّا، فحوّلت إعرابهما من الرفع إلى الجرّ؛ الأمر الذي يتبعه عملا في المعنى، فكأنَّ الياقوت والمرجان عُمِل بهما عملٌ حتّى صارا حورًا، وإذا قيل: كأنَّ الحور الياقوت والمرجان، تركتهما على إعرابهما؛ أي أنهما متروكان على حقيقتهما، والحور تشَبَّهُ بِهما في تلك الحال. ولا شكَّ في أنَّ الحورإذا شُبّهت بالياقوت والمرجان، وهما على حالهما باقيان يكون المعنى أقوى مما إذا شُبّهت بهما وهما غيرباقيين على حالهما. فكأن من قال: الحوركالياقوت والمرجان، قد نزَّلهما عن درجتهما فساواهما بالحور، ومن قال: كأنَّ الحورالياقوت والمرجان، رفع الحورعن درجتها حتى ساوت الياقوت والمرجان؛ حمرةً وبياضًا. وطرب النفس لهذه الصورة التشبيهية يأتي من دقة التعبيرالقرآني في هذا الوصف المجمل؛ فقد طوى السياق ذكروجه الشبه بين الحوروالياقوت والمرجان، ليصيرمحتملا لأكثرمن صفة؛ فوجه الشبه: إما أن يكون في صفائهما، أوفي حسن بياض اللؤلؤوحمرة الياقوت، أوفي صونهما وعدم ابتذالهما بالأيدي أو الأعين؛ فالحوركالياقوت في

(1) الرازي: فخر الدين، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3، 1420هـ، ج29، ص 377.

معدنه، والمرجان المصون في صدفه. والمقصد البلاغي من التشبيه في الآية الكريمة هو تزيين المشبه.

ومنه قوله تعالى: { فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ } [القلم: 20]

وسياق الآية يأتي ضمن سياق تذكير بقصة أصحاب البستان المثمر، وهي قصة يبدو أنها كانت معروفة لدى أهل الجزيرة، وذات صدى في نفوسهم؛ لذا يذكرهم التعبير القرآني بها؛ مشيرًا إلى عاقبة بطر النعمة، وجحود شكرها، ومنع الخير عن مستحقيه من المساكين. ومقام الآيات مقام سخرية من أصحاب البستان الذين بيتوا سوء النية، وأرادوا منع المساكين حظهم من ثمار تلك الجنة، فمكروا ومكر الله، وكانت المفاجأة أن طاف عليها طائف وهم غافلون، فأصبحت رمادًا أسود.

وفي قوله تعالى: {فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ}؛ الفعل أصبح من النواسخ الفعلية، التي تدخل كثيرًا على اسم مرفوع ومنصوب، أصلهما عند الجمهور مبتدأ وخبر، وهي تفيد اقتران الخبر بالزمن؛ أي أنّ هلاك ذلك البستان المثمر كان في الصبح. والصريم على وزن فعيل، وهو صفة ثابتة لاسم المفعول تدل على الثبوت واللزوم؛ ومن ثمّ كان التشبيه بالكاف لإفادة إثبات صفات الرماد الأسود لهذا البستان. ولبيان حالة البستان التي أصبح عليها، كان التشبيه المرسل المجمل بقوله: كالصّريم، وهو تشبيه ذكرت فيه أداة التشبيه وطوي وجه الشبه عن الذكر؛ لتصلح المشابهة بين المشبه والمشبه به على أي وجه يحتمله معنى الهلاك؛ فإذا كان الصريم هو الليل المظلم كان وجه الشبه شدّة السواد، وإذا كان يعني الرماد الأسود، كان وجه الشبه شدة الاحتراق، وتطاير الثمار في الهواء كالرماد، وإذا كان يعنى الصبح المنصرم، كان وجه الشبه زوال جمال البستان وبهجته. وهو تشبيه تمثيلي يصور عاقبة الطمع في صورة محسوسة ملموسة؛ إذ إنّ أصحاب البستان قد أقسموا على صرم ثماره لا يستثنون منه شيئًا، مستعجلين غير متريثين ولا مبطئين، غافلين عن قدرة الله تعالى المتحققة في الكون، فلا يحدث في كونه إلا ما أراده سبحانه. لقد قدّروا، ورغبوا، واستعجلوا، فأحاط الله بهم، و أنزل ببستانهم ما أنزل، فصار رمادًا. والمقصد البلاغي من التشبيه في الآية الكريمة هو بيان حالة المشبه.

ومنه كذلك قوله سبحانه: { وَبُسَّتِ الجِبالُ بَسًّا فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا } [الواقعة: 4: 7] .

يأتي سياق الآية ضمن سياق الصورة المفزعة التي رسمها التعبير القرآني لأهوال يوم القيامة، وقد ابتدأها برجّ الأرض الثابتة رجًّا، ثم بتصيير الجبال الشامخات الراسيات غبارًا متطايرًا، ثم تتوالى الأحداث بعدها.

وفي قوله تعالى: { فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا }؛ الفعل كان من النواسخ الفعلية، التي تدخل على اسم مرفوع ومنصوب، أصلهما عند الجمهور مبتدأ وخبر، وهي تفيد طي الزمن؛ أي أن تطاير الجبال كالغبار، وهي حالة جديدة حاصلة لها، كأنّها حالة حاصلة منذ القدم. ولبيان حالة الجبال التي صارت عليها كان التشبيه المؤكد المجمل بقوله: (فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا)، والتقدير: أي فكانت كالهباء المُنبثّ. وهو تشبيه بليغ طويت فيه أداة التشبيه عن الذكر وكذلك وجه الشبه؛ للتأكيد على أن الجبال الصلبة الراسية في تفتتها هي الغبار المتطاير بعينه. والمقصد البلاغي من التشبيه في الآية الكريمة هو بيان حالة المشبه.

الإسناد الفعلي:

يأتي الإسناد الفعلي التشبيهي على هيئتين؛ أما الهيئة الأولى، فيكون فيها الفعل في صورة المشبّه، ومفعوله المطلق (يكون مصدرًا مبينًا لنوع الفعل) في صورة المشبّه به، كما في قول المتنبي: [من بحر الطويل]

بَليتُ بِلى الأطْلالِ إنْ لم أقِفْ بها وُقوفَ شَحيحٍ ضاعَ في التُّرْبِ خاتمُهْ (1)

يدعو الشاعر على نفسهِ أن يبلى بلى يلازمه إن لم يُدِم الوقوف بالأطلال، مستدعيًا في شوقٍ عهدًا مضى مع أحبائه. وقد أرادَ أن يصوّرَ هيئةَ وقوفهِ الذاهل حين ينتقل من مكانٍ إلى مكانٍ في دهشةٍ من صروف الزمن وتحولاته في تلك الأطلال، فاستدعى حالَ شحيحٍ فَقَدَ في الترابِ خاتمًا ثمينًا، مستخدمًا المصدر المبين لنوع الفعل بوصفه مشبها به؛ وذلك في قوله: (بَليتُ بِلى)، وقوله: (أقِفْ بها وُقوفَ)، فقد جعل الشاعر المشبه به (بلى)، و(وقوفَ) مصدرًا مبينًا لنوع المشبه(بليت)، و(أقف)، وغرضه من ذلك تأكيد الفعل مع قصد الدوام واللزوم.

ومنه قوله تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} [النمل: 87، 88]

وللسياق في هذه الآية مقامان؛ المقام الأول: مقام فزع باعتبار السياق قبلها، وفيه ينقلب نظام الكون ويضطرب، وتتبدّل السماوات والأرض، وتُرَى الجبال ــ بعد تفتيتها ــ تسير في الهواء كسير السحب تدفعها الرياح. والمقام الثاني: مقام تفكّر باعتبار السّياق بعدها، وفيه دعوة للتفكّر والتدبّر في إتقان الله صنعة هذا الكون، فلا خلل، ولا نقص، ولا تفاوت،

(1) المتنبي: أبو الطيب، ديوان المتنبي، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصريّة/ بيروت، ط 2014م، ج2، ص336

بل كلّ شيء بتقدير وترتيب. ومن النظام العجيب لهذا الكون، أنّ الجبال تمرّ مرًّا حثيثًا لمسافات طويلة بشكل مستمر، ويحسبها الناس أنها راسية ثابتة في مكانها.

وفي قوله تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} تشبيه مؤكد مجمل؛ طرفاه الفعل (تَمُرُّ) في صورة المشبه، والمصدر(مَرَّ) في صورة المشبه به. وهذا التشبيه لم تذكر فيه أداة التشبيه ولا وجه الشبه؛ وذلك لإثبات أن مرور الجبال هو مرور السحاب عينه، مع تأكيد دوام هذا المرور وثبوته. وكذلك نجد الأفعال (تَرَى)، و(تَحْسَبُ)، و(تَمُرُّ) أفعال مضارعة دالة على التجدد، والاستمرار، وهي أفعال متناسقة فيما بينها، متناسبة مع غيرها من كلمات تركيب الآية؛ حيث المفعول المطلق (مرَّ)، وهو مصدر يبيّن نوع فعله (تَمُرُّ)، واسم الفاعل (جَامِدَةً)، وكلاهما يدلّ على الثبوت، واللزوم، والدوام. والتعبير القرآني للآية أُقِيمت فيه الصفة مقام الموصوف، والمضاف مقام المضاف إليه، والتقدير: وترى الجبال تمرّ مرًّا حثيثًا مثل مرّ السحاب؛ وذلك للتركيز على حدث مرور الجبال بعينه دون زمانه، وللفت انتباه المخاطب إليه، فيفرغ ذهنه له؛ ومن ثم يحدث له التفكّر والتدبر القائم على الإدراك الحسي، والنظر العقلي معًا. والمقصد البلاغي من التشبيه في الآية الكريمة هو بيان مقدار التشبيه.

وأما الهيئة الثانية، فيكون فيها الفعل في صورة واحدة في طرفي التشبيه، ومنه قوله تعالى: { وإذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا وإذا خَلَوْا إلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إنّا مَعَكم إنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ويَمُدُّهم في طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهم وما كانُوا مُهْتَدِينَ . مَثَلُهم كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نارًا فَلَمّا أضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وتَرَكَهم في ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ } [البقرة: 14 : 17] .

وسياق الآيات جاء في سلسلة الحديث عن المنافقين الذين اشتروا الضَّلالة بالهُدى، فقد قُدّم إليهم الهدى جبلّة وفطرةً، ومؤيّدًا بالمعجزات، لكنّهم استحبُّوا العمى والتّيه، فباعوا الهُدى في مقابلِ الضَّلال، فخسروا الصفقة بأكملها؛ ربْحًا ورأسَ مالٍ؛ ذلك أنّهم ضيَّعوا الربحَ المحقَّق عن رأس المال حين أضاعُوا رأس المالِ ذاته، وذلك أبشع الخسائر، ومثلهم في نفاقهم مع رسول الله والمؤمنين، كمن أوقد نارًا، فلمّا أضاءت ظلمتهم ذهب اللَّهُ بنارهم دون سبب، وتركهم أشدّ حيرة من أول أمرهم، بعدما انقطع إبصارهم.

وفي الآيات الكريمة تشبيه تمثيلي قائم على تشبيه هيئة مركبة بهيئة مركبة، ويعتمد على أن يكون وجه الشبه فيه منتزعًا من صور متعدّدة. وهذا التشبيه طرفاه الفعل (آمنّا) في قوله تعالى: { قَالُوٓاْ ءَامَنَّا}، والفعل (اشتروا) في قوله تعالى: {أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ

بِٱلْهُدَىٰ } في صورة المشبّه. والفعل (استوقد)، و(ذهب)، و(ترك) في قوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ } في صورة المشبه به. والتقدير: مثل الذين نافقوا في إيمانهم مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، كمثل رجل أوقد نارًا؛ طلبًا لرؤية ما حوله من الأشياء، فلمّا أضاءت واستأنس بنورها انطفأت دون سبب، فصار في حيرة أشدّ من حيرته أول أمره؛ ذلك أن ضوء النار قد عوّده رؤية ما حوله، ومن ثمّ يظهر أثر الظلمة أقوى. وهو تشبيه مرسل مجمل ذكرت فيه أداة التشبيه وطوي وجه الشبه عن الذكر؛ لتصلح المشابهة بين المشبه والمشبه به على أي وجه يحتمله معنى الخسران؛ فقد شبّه استماع المنافقين إلى القرآن باستيقاد النار. وشبّه القرآن في إرشادهم إلى الحق بالنار في إضاءة المسالك لهم في الظلام. وشبّه رجوعهم إلى الكفر بذهاب نور النار، وشبّه كفرهم بالظلمات.

والتعبير القرآني للتشبيه التمثيلي في هذه الآيات الكريمات، جاء فيه قوله تعالى: (مَثَلُهُم) مرفوع على الابتداء، والكاف خبره، أي مَثَلُهُم مَثلُ. ويجوز أن تكون حرفًا، ويكون الخبر محذوفًا، تقديره مثلُهُم ثابتٌ كمثَلِ [1]؛ ومن ثمّ يكون التشبيه بالكاف لإفادة إثبات صفات الخسران، والعمى، والتيه للمنافقين. وكذلك قوله: (الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا) جاء فيه التعبير بضمير الواحد، ثم في قوله: (ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ) تحوّل إلى ضمير الجمع؛ قصدًا لإثبات الحكم لكل واحد من المنافقين، فكلّ واحد منهم لا إحساس بصر له، كما أنّه في قوله: (بِنُورِهِم) لم يقل: بضوئهم؛ لأن الضوء يعني النور وضياءه، فلو قال: بضوئهم؛ لتُوهّم ذهاب الضوء وبقاء النور، وإنما المراد هو ذهاب النور وطمسه بالكلية. ثمّ إن الفعل في قوله: (ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ)، تعدّى بحرف الجر الباء، الذي يفيد معنى الاستصحاب، ومن ثمّ ينقطع الأمل في عودة النور مرة أخرى بعد أن ذهب الله به. وقوله: (بِنُورِهِم) ولم يقل: بنارهم؛ مراعاة للحال التي يكون عليه قلب المرء إذا امتلأ بالإيمان، فالتعبير القرآني انتقل مراعاة لهذه الحال من التمثيل إلى الحقيقة؛ ليبين أن الله ذهب بنور الإيمان من قلوب المنافقين، ولم يعد هناك مطمع في عودته. ثم ختم التعبير القرآني الآيات بقوله: (وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ) لما فيه من التحقير وعدم المبالاة بهم، ومن ثم نفى عنهم الإبصار مطلقًا [2]. والمقصد البلاغي من التشبيه في الآية الكريمة هو تقبيح المشبه.

ثانيًا: بنية النفي

(1) انظر القرطبي: أبو عبد الله، محمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط2، 1964م، ج 1، ص211.

(2) راجع ابن عاشور: الطاهر، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج 1، ص316.

يأتي النفي في بنية التشبيه لإنكار الاعتقاد بأن هناك تشابه بين طرفي التشبيه في وجه من وجوه الشبه؛ إذ يكون المشبه أضعف من المشبه به. وهو تشبيه له أركانه (المشبه، والمشبه به، وأداة التشبيه)، لكنه مسبوق بنفي، وقد يأتي التشبيه منفيًّا بـ (ليس أولا)، أو منفيًّا مسبوقًا بهمزة استفهام؛ فأما التشبيه المنفي بليس، فنحو قوله تعالى: { فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى } [آل عمران: 36].

وسياق الآية يعبّر عن مكنون الإيمان الذي ملأ قلب امرأة عمران، حين توجّهت إلى ربها بحبّة قلبها ـ وهو جنينها الذي تحمله في بطنها ـ محرّرًا له سبحانه وتعالى. وكانت تأمل أن يكون ذكرًا، لكنها وضعت أنثى، والنذر لخدمة الله في المعبد لا تكون إلا للذكور؛ إذ ينقطعون للعبادة، والتبتل، وخدمة الهيكل؛ ومن ثمّ ناجت ربها ـ وهو أعلم بحالها ـ مناجاة معتذر يشعر بقربه من ربه اللطيف الودود، قائلة: (رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى)، (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى) في تحمّل تلك الأعباء، وهذه الخدمة.

وفي التعبير القرآني للآية تشبيه منفي، طرفاه الذكر والأنثى، وهو تشبيه مرسل مجمل ذكرت فيه أداة التشبيه، وطوي وجه الشبه عن الذكر؛ ليصلح نفي المشابهة بين المشبه والمشبه به على أي وجه يحتمله المعنى. وقد جاء التعبير القرآني نافيًا المشابهة بين الذكر والأنثى بقوله تعالى: (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى)، ويقصد منه نفي المشابهة بينهما في مقام خدمة الهيكل، والانقطاع للعبادة. وإنما قدّم الذكر لاعتبارين؛ أولهما: باعتبار أن التعريف في الذكر للجنس، وإنما تقدّم ذكره؛ إذ كان هو المرجو في دعاء امرأة عمران: (إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما في بَطْنِي مُحَرَّرًا)، والتحرير لا يكون إلا للذكر. وتكون جملة (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ) محكيّة على لسان امرأة عمران، والتاء في (وَضَعْتُ) ضمير متكلم. والتقدير: وليس الأنثى الموهوبة منكَ كالذكر الذي رجوتُه لخدمة المعبد. "وجملة (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى) خبرٌ مستعمل في التحسُّر لفوات ما قصدته من أن يكون المولود ذكرًا، فتُحرِّره لخدمة بيت المقدس. وتعريف الذكر تعريف الجنس لما هو مرتكز في نفوس الناس من الرَّغبة في مواليد الذكور، أي ليس جنس الذكر مساويًا لجنس الأنثى"(1).

وثانيهما: باعتبار أن التعريف في الذكر للعهدية، وإنما تقدّم ذكره؛ ترجيحًا للأنثى التي وهبها الله ونفاستها، وأنها خير من الذكر الذي سألته امرأة عمران. وتكون جملة (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ) إخبار من الله عزّوجلّ، والتاء ضمير عائد على امرأة عمران. والتقدير: وليس

(1) المصدر نفسه، ج 3، ص233.

الذكر الذي رَجَوتِه أنتِ كالأنثى التي وهبتُها أنا لكِ؛ من حيث نفاستها، وعظيم شأنها. "وتمام الكلام في هذا المقام ما ذكره بعض المحققين أنه إذا دخل نفي بلا أو غيرها، أو ما في معناه على تشبيه مصرَّح بأركانه، أو ببعضها احتمل معنيين تفضيل المشبَّه بأن يكون المعنى أنَّه لا يشبَّه بكذا لأنَّ وجه الشَّبه فيه أولى و أقوى، كقولك: ليس زيد كحاتم في الجود، ويُحتمل عكسه بأن يكون المعنى أنَّه لا يشبَّه به لبُعد المسافة بينهما، كقول العرب: ماءٌ ولا كصِداءٍ، ومرعى ولا كالسَّعدان، وفَتًى ولا كَمالكٍ"(1). والمقصد البلاغي من التشبيه في الآية الكريمة هو تقرير حال المشبه.

وأما التشبيه المنفي بلا، فنحو قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ} [الأعراف: 40].

وسياق الآية امتداد لمشهد ساخر من مصير المكذبين المستكبرين، حين ينضم بعضهم إلى بعض في نارجهنم، متَّهمين بعضهم بعضا، متلاعنين. وهو سياق يؤكد أن هؤلاء المكذبين بآيات الله، المستكبرين عنها، لن يقبلوا في السماء، ولا يدخلون جنة النعيم إلى أن يدخل الجمل في ثقب الإبرة.

وفي التعبير القرآني للآية تشبيه ضمني يتراءى في قوله تعالى: (حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ)؛ وطرفاه جملة: (لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ) وهي المشبه، وجملة: (حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) وهي المشبه به. ويسمى هذا النوع من التشبيه ضمنيًّا؛ لأنه مستتروخفي، ولا يأتي على صور التشبيهات المعروفة غالبًا، بل يلحظ في تضاعيف الكلام. والتقدير: إنّ المكذبين بآيات الله والمستكبرين عن الإيمان بها لا يدخلون الجنة بحال من الأحوال، حتى يدخل الجمل في ثقب المخيط، وهو أمر لا يكون أبدا،" كما يقال: لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب أو يبيض القار، يريد لا أفعله أبدًا"(2). وقد أفاد تأكيد الخبر (بإنّ) في مطلع الآية الكريمة معنى التيئيس، كما أفادت الإضافة في قوله: (أبواب السماء) تعدد أوجه الحرمان من خيرات الله؛ وفيه معنى الخذلان لهم، الذي يشمل " عدم استجابة الدُّعاء، وعدم قبول الأعمال

(1) الآلوسي: أبو الفضل شهاب الدين، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ضبط وتصحيح علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1994م، ج2، ص131.

(2) البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن ، تحقيق محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1997م، ط4، ج3، ص229.

والعبادات، وحرمان أرواحهم بعد الموت مشاهدة مناظر الجنَّة ومقاعد المؤمنين منها"[1]. والمقصد البلاغي من التشبيه في الآية الكريمة هو تقبيح المشبه.

وأما التشبيه المنفي المسبوق بهمزة استفهام، نحو قوله تعالى :{ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [آل عمران: 162] .

وسياق الآية يعقب الحديث عن الغلول والانشغال بالغنائم في المعركة؛ الأمر الذي كان سببًا حقيقيًّا في هزيمة أحد؛ ومن ثم يوجه اهتمامات تلك القلوب إلى ميدان الربح والخسارة الحقيقي، إنه ميدان الاعتراف بألوهية الله ووحدانيته، والتوكل عليه؛ فإذا قدَّر لهم النصر فلا أحد يردّ نصره، وإذا قدَّر لهم الهزيمة والخذلان فلا ملجأ لهم من ذلك. والتعبير القرآني يلمس القلوب لمسات تربوية عجيبة بمنهج إيماني فريد؛ إذ إن الربح الحقيقي هو أن يفوز المرء برضوان ربّه، وينجو من عقابه وسخطه.

والتعبير القرآني للآية فيه تشبيه منفي يسبقه همزة استفهام، إنكارًا للمساواة بين حال من يحرص في أفعاله على رضوان الله، وحال من استحق سخطه وعقابه. وهو تشبيه مرسل مجمل ذكرت فيه أداة التشبيه، وطوي وجه الشبه عن الذكر؛ ليصلح نفي المشابهة بين المشبه (مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ) والمشبه به (مَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ) على أي وجه يحتمله المعنى. والمقصد البلاغي من التشبيه في الآية الكريمة هو تزيين المشبه. وقد قدّم السياق القرآني اتّباع رضوان الله وجعله مشبّهًا؛ ترجيحًا له، وللدلالة على أن الفوز برضوان الله يحتاج إلى مزيد عناية واهتمام. وجاء النفي بالهمزة؛ توبيخًا وتقريعًا لمن استحق سخط الله وباء به. ونظير هذه الآية قوله تعالى: { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهم كالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ سَواءً مَحْياهم ومَماتُهُمْ} [سورة الجاثِيَةِ: ٢١] وقوله: {أفَمَن كانَ مُؤْمِنًا كَمَن كانَ فاسِقًا لا يَسْتَوُونَ} [سورة السَّجْدَةِ: ١٨] وقوله: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ كالمُفْسِدِينَ في الأرْضِ أمْ نَجْعَلُ المُتَّقِينَ كالفُجّارِ} [سورة ص: ٢٨] .

ثالثًا: بنية النهي

يأتي النهي في بنية التشبيه لطلب الكفّ عن فعل شيء ما مادي أو معنوي، بصيغة مخصوصة، وهي المضارع المسبوق بلا الناهية. ومن شواهد التشبيه المسبوق بالنهي قوله

(1) ابن عاشور: الطاهر، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج 8 . ب، ص126.

تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [النحل: 92].

وسياق الآية يرسي قاعدة إيمانية للوفاء بالعهود؛ ويتشدد في أمر الوفاء بها؛ استنكارًا وتحقيرًا لما كانت عليه العرب من قبل؛ إذ كانت تحالف الحلفاء فتجد أكثر منهم وأعزَّ، فتنقض حلفها وتحالف مَنْ هم أعزُّ، فنهى الإسلام المسلمين عن ذلك، وأمرهم بالحفاظ عليها، وحذرهم من اتخاذ المبررات الواهية لنقضها، منبّها لهم بأنّ صنيعًا مثل هذا لا يكون إلا مِنْ ضعيف الإرادة، ملتاث العقل أحمق، مثله كالتي تفتل غزلها ثم تنقضه من إبرامه وإحكامه، ولا يرضى عاقل كريم النفس أن يكون هذا حاله.

والتعبير القرآني للآية الكريمة فيه تشبيه مسبوق بنهي، وطرفاه؛ ضمير الجماعة في (تكونوا) وهو المشبه، واسم الموصول (التي) وهو المشبه به، وأداة التشبيه (الكاف)، ووجه الشبه (النقض من بعد الإبرام). وهو تشبيه مرسل مفصل، والتشبيه كلما كان أكثر تفصيلا كان أوضح في إظهار الصورة. ولمَّا كانت المرأة معلومة عند قريش عبّر السياق عنها بطريق الموصولية؛ تخصيصًا للصورة التي كانت عليها هذه المرأة في أخسّ أحوالها؛ تحذيرًا منه وتنفيرًا، وإنَّ فعلًا مثل فعلها صاحبُه داخلٌ في عداد الحمقى. وهذا التشبيه من باب تشبيه المدرك الوجداني بالمدرك الحسّي؛ حيث شبّه نقض العهد بعد توكيده بالأيمان، وهو شيء معنوي، بنقض تلك المرأة الحمقاء غزلها من بعد إحكامه، وهو شيء محسوس، وقد سُبق التشبيه بالنهي؛ ليكون الإذعان له أسرع، والاستجابة له أدعى. والمقصد البلاغي من التشبيه في الآية الكريمة هو تقبيح المشبه.

ومنه قوله تعالى"{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران ١٠٥]

وسياق الآية يعقب الحديث عن المنهج الإلهي الذي ارتضاه الله (عزّوجلّ) للجماعة المسلمة، فهي أمّة وسط، ركيزتها الإيمان بالله، والأخوة في التكافل والتعاون؛ ومن ثمّ كانت أرضًا صالحة نما فيه الخير والحق، ولم ينم فيها الشّرّ والباطل. وقد جاء السّياق القرآني يحذر هذه الجماعة من عاقبة التفرّق والاختلاف الذي وقع فيه أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ويتوعّد المتشبهين بهم، والمفرّطين في أمور دينهم بعذاب عظيم.

والتعبير القرآني للآية الكريمة فيه تشبيه مسبوق بنهي، وطرفاه؛ ضمير الجماعة في (تكونوا) وهو المشبه، واسم الموصول (الذين) وهو المشبه به، وأداة التشبيه (الكاف)، ووجه

الشبه (التفرّق والاختلاف). وهو تشبيه مرسل مفصل، يعتمد على التفصيل لإظهار الصورة الفنية. ولمَّا كان أهل الكتاب معلومين في أحوالهم عند المسلمين عبّر السّياق عنهم بطريق الموصولية؛ تخصيصًا للحال التي كانوا عليها، من الاختلاف في أمور التَّوحيد، والتنزيه، وأحوال الآخرة. ولمّا كان المقام في سياق الآية مقام ذمٍّ للمتشبهين من المسلمين باليهود والنصارى، جاء التشبيه مسبوقًا بالنهي عن التشبّه بهم؛ ليكون الإذعان إليه أسرع، والاستجابة له أدعى؛ لأن التشبّه بهم يستدعي الغضب من الله. والمقصد البلاغي من التشبيه في الآية الكريمة هو تقبيح المشبه.

ومنه قوله تعالى: {وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ} [الحشر ١٩]

بطريقة معهودة في تربية الجماعة المسلمة يأتي سياق هذه الآية منبّهًا لها ومحذّرًا من الغفلة عن يوم القيامة والإعداد له، حتى لا تلقى مصير الذين وقعوا في الغفلة من قبل؛ ذلك أنهم لما أعرضوا عن تقوى الله وخشيته بإرادتهم، أعرض الله عنهم وسلبهم العمل بما ينجّيهم من خزي الآخرة وعذابها، فبلغوا منتهى الفسق، فلا فسق بعد فسقهم.

والتعبير القرآني في الآية الكريمة فيه تشبيه مسبوق بنهي، وطرفاه؛ ضمير الجماعة في (تكونوا) وهو المشبه، واسم الموصول (الذين) وهو المشبه به، وأداة التشبيه (الكاف)، ووجه الشبه (النسيان والغفلة). وهو تشبيه مرسل مفصل. ولمَّا كان اليهود معلومين في أحوالهم عند المسلمين عبّر السّياق عنهم بطريق الموصولية؛ تخصيصًا للحال التي كانوا عليها من الفسق، ونسيان الدين، وميثاق الله الذي أخذ عليهم. ولمّا كان المقام في سياق الآية مقام تشهير باليهود ووصفهم بالفسوق، جاء التشبيه مسبوقًا بالنهي عن التشبّه بهم؛ تحذيرًا للفئة المؤمنة من الإعراض عن الدين، والتغافل عن خشية الله، وقد جاء التشبيه مصوّرًا لإضاعة التقوى، وهي صورة معنوية في صورة محسوسة متحققة في اليهود حين أعرضوا عن الله. والمقصد البلاغي من التشبيه في الآية الكريمة هو تقبيح المشبه.

رابعًا: بنية الوصف

وفيها يكون المشبه به نعتًا للمشبه، أو منعوتًا بنعت يضيف دلالة جديدة تناسب السِّياق التشبيهي، وتكمن بلاغة النعت في التوضيح والتخصيص، والتوكيد والتقرير، والتزيين والتجميل، والتقبيح والتشويه. أما عن بنية الوصف التي فيها المشبه به نعت للمشبه، فمثل قوله تعالى: {يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ * خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ} [المطففين: 25، 26]. وسياق الآيتين ضمن سياق عام يصف حال الأبرار، وما

ينتظرهم في الآخرة من نعيمٍ مقيمٍ، يفيض نضـــارة على وجوههم. فهؤلاء الأبرار على الأرائك ينظرون إلى كلّ ما يسرُّ نفوسهم، ويشربون شرابًا خالصًا لا غشّ فيه، قد أعدّ خصيصًا لهم، ولم تمسّـه يدٌ قبلهم؛ فهم أول من يفضّـون أختامه المقفلة. وإمعانًا في إكرامهم لا تنقطع لذتهم بعد انتهائهم من الشرب، وإنما لذتهم مكتملة متصلة؛ إذ يجدون في عاقبته ريح المسك.

وفي الآيتين الكريمتين تشـبيه بليغ طرفاه؛ كلمة (رَحِيقٍ) وهي تمثل الطرف الأول (المشبه)، وجملة (خِتَامُهُ مِسْكٌ) تمثل الطرف الثاني (المشبه به)، وهي نعت حقيقي للمشبه (نعت جملة اسمية). وقد حذفت أداة التشبيه وكذلك وجه الشبه؛ للتأكيد على أن المشبه هو المشبه به عينه. والتقدير: يسقون من رحيق مختوم ختامه كالمسك في طيب نكهته. والمقصد البلاغي من التشبيه في الآية الكريمة هو تزيين المشبه.

وقد عبّر السّياق التشبيهي للآية بالفعل: (يُسْقَوْنَ)، في صيغة المضارع المبني لما لم يسمّ فاعله، للتأكيد على أن السّقي يتم بشكل دائم ومتجدد؛ مما يدل على دوام النعمة واستمراريتها. والتعبير بقوله: (يُسْقَوْنَ) دون (يَشْرَبُونَ)؛ " للدلالة على أنَّهم مخدومون يخدمهم مخلوقات لأجل ذلك في الجنَّة. وذلك من تمام التَّرفُّه ولذَّة الرَّاحة"(1). وكذلك عبّر السياق بكلمة (رحيق) دون (الخمر)؛ للدلالة على جودة الخمر ونقائها، فالرحيق نوع من الخمر غير التي تجري في الأنهار، ومن ثمّ نُعت بقوله: (مختوم)؛ أي أنه في آنية مختومة لم تمَسّها يدٌ قبل الأبرار، وزيادة في الإكرام كان هذا الختام ممزوجًا بالمسك، وذلك قوله: (ختامه مسك)؛ فإذا انتهى الشّاربُ من شربه، وجد طعم شرابه وعاقبته مسكًا؛ أي أنّ الله قد جمع لهم لذاذة الطعم وطيبه وأريج الرّائحة وذكاءها.

وكذلك قوله تعالى: {وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ. يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ} [إبراهيم: 15 - 17].

وسياق الآيات يصوّر مشهدًا من مشاهد معركة الحق مع الباطل، وهو سياق متكرّر في قصص الرسل (عليهم السلام) مع أعدائهم من أقوامهم؛ حيث يكذبونهم ويصرّون على عنادهم، ويتوعدونهم بإخراجهم من ديارهم وأرضهم، بل ويظنون أنهم على الحق، فيطالبون بالقضاء بينهم وبين أنبيائهم، ويطالبون بالنصرة عليهم؛ الأمر الذي جعل هؤلاء الرسل (عليهم

(1) ابن عاشور: الطاهر، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج 30، ص205.

السلام) يدعون على أقوامهم لما يئسوا من إيمانهم، فأتاهم النصر من الله، وخاب كل متكبّر عنيد لما سيلقى من العذاب يوم القيامة.

وفي قوله: {وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ} تشبيه بليغ؛ طرفاه (الماء) المشبه، و(الصديد) المشبه به، وهو نعت للماء. والتقدير: ويسقى من ماء مثل الصديد إن أراد الإسقاء. وهو تشبيه مؤكد مجمل، لم تذكر فيه أداة التشبيه ولا وجه الشبه؛ للتأكيد على أن الماء هو الصديد عينه في جميع أحواله؛ لونه، وطعمه، ورائحته. والمقصد البلاغي من التشبيه في الآية الكريمة هو تقبيح المشبه.

والتعبير القرآني للآية قد عبّر بصيغة النكرة في قوله: ماء صديد؛ حيث الإبهام ثم التبيين؛ زيادة في تهويل العذاب الذي ينتظر هؤلاء المتكبرين. وكذلك التعبير بالفعل (يُسقى) في صيغة المضارع المبني لما لم يسمّ فاعله؛ للتأكيد على أن السّقي يتم بشكل دائم ومتجدد؛ الأمر الذي يدل على دوام العذاب واستمراريته. وكذلك تعبيره بقوله: (يُسْقَى) دون(يَشْربُ)؛ للدلالة على أنَّ السّقي من الصديد لون من ألون العذاب الزائد على نار جهنم، وذلك من تمام الشّقوة والنصب؛ ومن ثم جاء التعبير بعدها بقوله: يتجرّعه ولا يكاد يسيغه، للدلالة على شدّة النتانة والقذارة.

وأما عن بنية الوصف التي فيها المشبه به منعوت بنعت يضيف دلالة جديدة تناسب السياق التشبيهي، فمنها قوله تعالى: {اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ والأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ المِصْباحُ في زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ} [النور: 35].

وسياق الآية يكشف عن حال المؤمن مع ربّه؛ حيث فطرته الصافية، وقلبه الذي يستمد نوره من نور الله وهدايته، فاجتمع له صفاء الفطرة ونور الإيمان والمعرفة في التعرّف على ربّه؛ فحيثما توجّه إليه قلبه رآه، وحيثما تطلع إليه حائرًا هداه.

وفي قوله تعالى: (اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ والأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ) تشبيه تمثيلي (تشبيه هيئة بهيئة)؛ طرفاه (نور الله) المشبه، و(المشكاة) المشبه به، وهذا التشبيه مرسل مجمل ذكرت فيه أداة التشبيه، وطوي وجه الشبه عن الذكر؛ لتصلح المشابهة بين المشبه والمشبه به على أي وجه يحتمله معنى الهداية بنور الله؛ حيث شبه حالة المؤمن الذي أضاء قلبه نور الإيمان، بحالة مشكاة فيها مصباح بدّد ضوؤه ظلمتها. وهذه المشكاة فِيها مِصْباحٌ هو في زُجاجَةٍ هي كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ. وقوله تعالى: (فِيها مِصْباحٌ) نعت حقيقي للمشكاة، وقد قدّم المشكاة؛ مراعاة للترتيب في هيئة المشبه به، وعبّر بالمصباح دون طلوع الشمس

وبزوغ القمر؛ للتأكيد على استمرارية هذا النوروثبوته؛ إذ إنّ طلوع الشمس يبدّد ظلمة الليل ثم بغروبها تعود الظلمة مرة أخرى، وكذلك بزوغ القمر يبدو في بعض الليالي ويغيب في بعضها.

وفي قوله تعالى: (الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ) (*) تشبيه؛ طرفاه (الزُّجاجَةُ) المشبه، و(كَوْكَبٌ) المشبه به، وهذا التشبيه مرسل مجمل ذكرت فيه أداة التشبيه، وطوي وجه الشبه عن الذكر؛ لتصلح المشابهة بين المشبه والمشبه به على أي وجه يحتمله معنى البريق واللمعان، فهذا الكوكب (دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ)، وقوله: (دُرِّيٌّ) نعت أول، وهو نعت حقيقي مفرد، وقوله: (يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ) نعت ثانٍ، وهو نعت حقيقي جملة. وفي نعت المشبه به بأنه دُرِّيٌّ، وأن إيقادَه مِن شجرةٍ مباركةٍ؛ للتأكيد على تفخيم شأن الزجاجة التي تشتمل على مصباح في مشكاة. وفي التعبير بصيغة المضارع في قوله: (يُوقَدُ) و(تَوَقَّدُ) إفادة تجدُّد إيقاده، فلا يُطفَأُ أبدًا. وفي التعبير بصيغة الماضي في قوله: (تَوَقَّدَ) إفادة الثبوت والتحقق للإيقاد.

ومنها كذلك قوله تعالى: {خُشَّعًا أَبْصارُهم يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْداثِ كَأَنَّهم جَرادٌ مُنْتَشِرٌ} [القمر 7]

وسياق الآية يحكي مشهدًا من مشاهد يوم القيامة، ويصوّر هول الموقف، وسرعة استجابة الناس لنداء البعث، مع إبراز حالتهم من الكثرة، والضعف، والانتشار. إنه مشهد عظيم ومفزع، حيث يخرجون من قبورهم دفعة واحدة وبأعداد هائلة، كالجراد الكثيف؛ الأمر الذي يعكس حالة الناس في ذلك اليوم، فهم ضعفاء أمام قدرة الله وعظمته، ومنقادون لأمره نحو مكان الحساب مدفوعين بقوة لا يملكون لها ردًّا.

وفي التعبير القرآني للآية الكريمة تشبيه تمثيلي (تشبيه هيئة بهيئة)؛ طرفاه ضمير الغيبة (هم) العائد على الموتى وقت خروجهم من الأجداث (المشبه)، وجراد (المشبه به)، وهذا التشبيه مرسل مجمل ذكرت فيه أداة التشبيه (كأنّ)، وطوي وجه الشبه عن الذكر، وجاء بقوله: (منتشر) نعتًا للمشبه به؛ لتصلح المشابهة بين المشبه والمشبه به على أي وجه يحتمله معنى الانتشاروالاندفاع؛ انقيادًا لأمر الله. فقد شبّه هيئة خروج الموتى من الأجداث مدفوعين بعضهم فوق بعض، بهيئة أسراب الجراد الكثيفة التي تغطي الأفق، وطرب النفس لهذه الصورة التشبيهية يأتي من دقة التعبير القرآني في هذا الوصف المجمل؛ فقد طوى

(*) قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم (يُوقَدُ)، وقرأه حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف (تَوَقَّدُ) على أنه مضارع (تَوَقَّدَ) حذفت منه إحدى التاءين، وأصله (تَتَوَقَّدُ). وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر مثل قراءة حمزة ومن معه لكن بفتح الدال (تَوَقَّدَ) على أنه ماضٍ.

السياق ذكروجه الشبه بين الموتى والجراد، ليصير محتملا لأكثر من صفة؛ فوجه الشبه: إما أن يكون في كثرته وتموجه، أو في اضطراب حركته، أو في الذهول والارتباك، أو في المجيء والذهاب على غير نظام بلا وجهة محددة. والمقصد البلاغي من التشبيه في الآية الكريمة هو بيان حال المشبه.

وقد عبّر بالفعل (يخرجون)؛ في صيغة المضارع الدّال على الاستمرار والتجدد؛ الأمر الذي يجعل مشهد البعث أكثر حيوية وتأثيرًا في ذهن المتلقي، فهو يوحي باستمرارية هذا الخروج وتدفقه بأعداد كبيرة. والتعبير ببنية الفعل بثبوت النون في صيغة الرفع دون النصب أو الجزم؛ للتأكيد على أن الخروج ثابت ومتحقق على كل المخلوقات بلا استثناء، فكل الكائنات عاقل وغير عاقلة ستخرج للنشور أمام الله سبحانه. وكذلك عبّر بالأجداث دون القبور؛ تماشيًا مع سياق المشهد المفزع ليوم القيامة؛ إذ إن الأجداث تحمل في طياتها فعل القبور بأجساد الموتى، فكأنها مضغتهم ثمّ لفظتهم من بطنها؛ ومن ثم التأكيد على أن الموتى سيحشرون من أماكن دفنهم حشرًا حقيقيًّا بالجسد والروح.

كما عبّر بـ(كأنّ) بوصفه حرفًا يفيد التشبيه دون(الكاف)؛ لإظهار فرط عنايته بالتشبيه المنعقد. والتقدير: كأن الموتى وقت خروجهم من الأجداث كالجراد المنتشر. والتشبيه بكأنّ الدّاخلة على المشبَّه به لا تفيد من المبالغة ما تفيده الدّاخلة على المشبَّه؛ فمن حيث المعنى، إذا قيل: الموتى كالجراد المنتشر، كان معناه: الموتى يشبهون الجراد المنتشر، وإذا قيل: كَأنَّ الموتى الجراد المنتشر، فمعناه أنّهم هم الجراد حقيقةً، لكنَّ قولنا: الموتى يشبهون الجراد المنتشر ليس فيه هذه المبالغة، ولا يمكن حمله على الحقيقة. أما من حيث اللفظ، فإذا دخلت الكاف على المشبَّه به، وقيل: إنَّ الموتى كالجراد المنتشر، عملت الكاف في الجراد عملا لفظيًّا، فحوّلت إعرابه من الرفع إلى الجرّ؛ الأمر الذي يتبعه عملا في المعنى، فكأنَّ الجراد المنتشر عُمِل به عملٌ حتّى صار موتى، وإذا قيل: كأنَّ الموتى الجراد المنتشر، تركته على إعرابه؛ أي أنه متروك على حقيقته، والموتى يُشَبَّهون به في تلك الحال. ولا شكَّ في أنَّ الموتى إذا شُبّهوا بالجراد، وهو على حاله باقٍ يكون المعنى أقوى مما إذا شُبّهوا به وهو غير باقٍ على حاله. فكأن من قال: الموتى كالجراد المنتشر، قد نزّله عن درجته فساواه بالموتى، ومن قال: كأنَّ الموتى الجراد المنتشر، رفع الموتى عن درجتهم حتى تساووا بالجراد؛ كثرة و انتشارًا.

خامسًا: بنية الحال

وفيها يكون المشبه به حالًا للمشبه. والحال ليست مجرد بنية نحويّة أضيفت إلى التركيب التشبيهي فحسب، و إنما هي أداة بلاغية قويّة تُسهم بشكل كبير في إثراء المعنى، وتوضيح الصورة، وجذب انتباه المتلقي؛ ومنه قول المتنبي يصف حسناءه: [من بحر الو افر]

بَدَتْ قَمَرًا ومالَتْ خُوطَ بانٍ وفاحَتْ عَنْبَرًا ورَنَت غَزالا(1)

بدى وجه محبوبته مشبهًا قمرًا في حسنه، ومالت ليّنة في مشيها مشبهةً غصن بان في تثنّيها، وفاحَت مشبهةً عنبرًا من طيب ريحها، ونظرت كحلاء الجفون مشبهةً غزالا في سواد مقلتها. وهذا من أحسن التشبيه؛ لأنه جمع محاسن محبوبته في أربع تشبيهات في بيتٍ واحد، وكلها مركبات حالية، ورد في كلّ منها صاحب الحال مشبّهًا، والحال مشبّهًا به. والمشبّه واحد هو المحبوبة. والتشبيهات الأربعة من التشبيه البليغ، حيث حُذف في جميعها أداة التشبيه ووجه الشبه.

ومنه قوله تعالى: { فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةً كَٱلدِّهَانِ} [الرحمن: 37]

يأتي سياق الآية ضمن الحديث عن نعم الله وآلائه، والتذكير بأهوال يوم القيامة، وعذاب الكافرين، وجزاء المؤمنين؛ ومن تلك الأهوال انشقاق السماء وتحوّل هيئتها إلى هيئة تشبه الوردة في حمرتها، وتشبه الدهان في سيولته ولمعانه، فهذه هيئة مضطربة سريعة الحركة تنذر بنهاية النظام الكوني المألوف. وموضع الشاهد في الآية قوله تعالى: (كَٱلدِّهَانِ)، ولكن لإتمام الفائدة نعرض للصورة التشبيهية في الآية كاملة؛ ذلك أنها ضمن السياق التفصيلي للمعنى؛ ففي قوله تعالى: (فَكَانَتۡ وَرۡدَةً) الفعل كان من النواسخ الفعلية، وهو يفيد طي الزمن؛ أي أن انشقاق السماء وتحوّل هيئتها إلى وردة ــ وهي حالة جديدة حاصلة لها ــــ كأنها حالة حاصلة منذ القدم. ولبيان حالة السماء التي صارت عليها كان التشبيه بقوله تعالى: (فَكَانَتۡ وَرۡدَةً كَٱلدِّهَانِ).

والتشبيه في الآية الكريمة تشبيه مركب؛ فقوله تعالى: (فَكَانَتۡ وَرۡدَةً)؛ أي كانت كوردة. وهو تشبيه مؤكد مجمل (بليغ)؛ فيه المشبه والمشبه به أصلهما المبتدأ والخبر، وقد طويت أداة التشبيه عن الذكر وكذلك وجه الشبه؛ للتأكيد على أن السماء في كثرة شقوقها وحمرتها هي الوردة الحمراء المورقة بعينها. وقوله تعالى: (كالدِّهانِ)؛ أي كانت كدهن الزيت. وهو تشبيه مرسل مجمل؛ فيه كالدّهان (المشبه به) حال من اسم كانت (المشبه)، وقد ذكرت أداة التشبيه وطوي وجه الشبه؛ لتصلح المشابهة بين المشبه والمشبه به على أي وجه يحتمله

(1) المتنبي: أبو الطيب، ديوان المتنبي، مصدر سابق، ج2، ص63.

المعنى؛ حيث الانشـقاق مع التموّج، والاضـطراب، والذوبان، واللمعان. والمقصـد البلاغي من التشبيهين في الآية الكريمة هو بيان حالة المشبه.

ومن ذلك ـ أيضًا ـ قوله تعالى: { أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ} [الملك:19]

وسـياق الآية يلفت انتباه البشـر إلى مشـهد متكرر مألوف لهم، وهم عنه غافلون، لاهية قلوبهم، شـاردة عقولهم. إنه مشـهد عميق يحمل في طيّاته من العجائب والدلالات ما يسـتحق الوقوف والتأمل. إنه مشـهد الطير سـابحات في جوّ السّـماء تبسـط أجنحتها في انسـياب، وتقبضـها في قوة وحركة. ما يمسـكها أن تقع إلا الرحمن الذي سـخر لها الهواء، وألهمها كيفية الطيران، وأمدّها بالقوة اللازمة لذلك. إنه الله البصـير الذي أحاط بكل شـيء علمًا، وخلق كل شيء بقدر، ودبّر كل شيء بحكمة.

ويتراءى في التعبير القرآني للآية الكريمة تشـبيه تمثيلي (تشـبيه هيئة بهيئة)؛ هيئة الطير في السـماء، وهيئة السـابح في الماء؛ حيث مدّ الأطراف وبسـطها، ثم القبض مرة بعد مرة، وذلك بشـكل متجدد فترة إثر فترة. وهذا التشـبيه تشـبيه ضـمنيّ؛ طرفاه: الطير (المشـبه)، و(صَـافَّاتٍ وَيَقْبِضْـنَ) المشـبه به. وقوله: (صَـافَّاتٍ) حال مفردة من الطير، وقوله: (وَيَقْبِضْـنَ) حال جملة من الطير أيضًا. والمقصد البلاغي من التشبيه تقرير حال المشبه.

وقد عبّر السّـياق القرآني بالاسـتفهام الإنكاري في قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا)، تعريضًـا بالأمم التي أهلكها الله من قَبل، فلو كانوا آمنوا واعتصـموا بالله لأنجاهم من السـقوط في الهاوية، كما أنجى الطير وحفظها من السـقوط على الأرض. وعبّر عن هيئة الطيران بصـيغة الاسـم ثم الفعل في قوله تعالى: (صَـافَّاتٍ وَيَقْبِضْـنَ)، ولم يقل: (صَـافّاتٍ قَـابِضَـاتٍ) أو (يَصْـفُفْنَ ويَقْبِضْـنَ)؛ إذ إنّ الأصـل في الطيران بسـط الأجنحة ومدّها، والقبض شـيء عارض عليه؛ ومن ثمّ عبّر بالاسـم عمّا هو أصـل وثابت، وعبّر بالفعل عما هو عارض وطارئ، فأكثر أحوال الطير عند الطيران هو الصّفّ، ويجددن قبض الأجنحة إذا أردن زيادة الحركة والسرعة.

وكذلك قوله تعالى: { كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالحَقِّ وإنَّ فَرِيقًا مِنَ المُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ. يُجادِلُونَكَ في الحَقِّ بَعْدَما تَبَيَّنَ كَأنَّما يُساقُونَ إلى المَوْتِ وهم يَنْظُرُونَ} [الأنفال: 5، 6]

وسـياق الآيتين من أحداث ما قبل غزوة بدر مباشـرة؛ حيث تجادل فريق من المؤمنين في مسـألة الخروج لملاقاة جيش قريش، بدلاً من اعتراض القافلة التجارية، التي كانوا يفضـلونها لأنها أسـهل و أقل خطورة. لقد أصـبح واضـحًا أن المواجهة العسـكرية هي قدر الله لهم، لكنهم كانوا يجادلون في هذا الأمر. وهذا الجدال لم يكن نابعًا من شـكّ في أمر الله، بل من ثقل

التكليف على النفس البشـرية، وخوفها الطبيعي من الموت. ولهذا فإن عرض هذه الحالة النفسية هو جزء من التربية الإلهية لصحابة النبي (صلى الله عليه وسلم)، وللمؤمنين جميعًا من بعدهم. فقد كشف الله لهم حقيقة مشاعرهم، وضعفهم البشري؛ ليعلّمهم ضرورة الثقة المطلقة في قدره وتدبيره، حتى وإن بدت المشقّة فيه، أو خالف ما تهواه النفس.

وفي قوله تعالى: (يُجادِلُونَكَ فِي الحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأنَّما يُساقُونَ إلى المَوْتِ وهم يَنْظُرُونَ) تشبيه تمثيلي (تشبيه هيئة بهيئة)؛ طرفاه (يجادلونك في الحق) المشبه، و(يساقون إلى الموت) المشبه به، وهذا التشبيه مرسل مجمل ذكرت فيه أداة التشبيه، وطوي وجه الشبه عن الذكر؛ لتصلح المشابهة بين المشبه والمشبه به على أي وجه يحتمله معنى الخوف والهلع. ويتراءى من هذه الصورة التشبيهية أن المشبه به حال من المشبه؛ ففي قوله تعالى: (يُساقُونَ إلى المَوْتِ)؛ أي مشبّهين بمن يُساق إلى القتل رُغم أنفه، الجملة في محل نصب على الحاليّة من ضمير (لَكارِهُونَ). وقوله تعالى: (وَهُم يَنْظُرُونَ)؛ حال من ضمير (يُساقُونَ). وهكذا شبّه حالة فريق من المؤمنين كرهوا الخروج للقتال ـــ وهو الحق الذي تبين لهم وجوبه ـــ وترددوا فيه، وخافوا منه، بحالة من يُساق ويُدفع إلى الموت دفعًا وهو يراه، ويعاينه، ويشاهده أمام عينيه. وبالتالي فإن المقصد البلاغي للتشبيه في الآية الكريمة هو تقبيح المشبه.

وقد عبّر السّياق التشبيهي للآية بما المصدرية المضافة إلى الظرف مع الفعل الماضي في قوله تعالى: (بَعْدَ ما تَبَيَّنَ)؛ أي بعد تبيّنه، وتحققه، وثبوته؛ للدلالة على أنّ الجدال في الأمر الواضح أقبح من الجدال فيه قبل أن يتضح. كما عبّر بما الكافّة المضافة إلى أداة التشبيه كَأنَّ في قوله تعالى: (كَأنَّما يُساقُونَ) ولم يقل: كأنّهم يُساقُون؛ للتأكيد على أنّهم لم يعاينوا الموت على الحقيقة، و إنما شاهدوا أسبابه وعلاماته، وذلك من فرط رعبهم وفزعهم؛ ذلك أنّ الله لم يكن ليسوقهم إلى حتفهم، وهم العصابة المؤمنة، التي إن هلكت وقتئذ، فلن تقوم للإسلام راية.

وهذا يتناسب مع التعبير بالفعل (يُساقُونَ)، في صيغة المضارع المبني لما لم يسمّ فاعله، للتأكيد على أن السّوق لملاحقة المشركين كان ضدّ رغبة هؤلاء المجادلين، فما كان خروجهم إلا للعير؛ ومن ثمّ اختتمت الآية بقوله تعالى: (وَهُم يَنْظُرُونَ) ؛ للتأكيد على أنّ فرط الفزع عندهم جعلهم كأنّهم في إدراك حسّيّ تامّ للهلاك، رغم أنهم نظروا إلى موجبات الهلاك ولم يبصروه حقيقة؛ حيث كان عددهم قليلا، وكانوا رجّالة، ولم يكن فيهم إلا فارسان، فظنّوا أنهم هالكون. وقد جيء بالفعل (يَنْظُرُونَ) دون (يُبْصِرُون)؛ للدلالة على أنّ الهلاك الذي

شـغلهم كان محضَ تصـوّرٍووهمٍ، ولم يكن يقينًا وحقيقة؛ إذ إن النظر هو توجه العين إلى شيء ما بغية إبصاره، فقد تبصره وقد لا تبصره، أما البصر فهو رؤيته وإدراكه بتعقّل.

الخاتمة والنتائج:

تناول هذا البحث بالدراسة والتحليل جانبًا مهمًا من جوانب البلاغة القرآنية، وهو بنية التشبيه في القرآن الكريم، وذلك من خلال تتبع أشكال التشبيه التي تأتي في سياقات نحويّة متنوعة، شملت بنية الإسناد، وبنية النفي، وبنية النهي، وبنية الوصف، وبنية الحال.

وقد أظهر التحليل أن التشبيه في القرآن الكريم ليس مجرد أداة للتوضيح أو التصوير، بل هو وسيلة فنية وبلاغية رفيعة المستوى، تستخدم لخدمة أغراض دينية، وتربوية، ودعوية متنوعة. وأن البنية النّحويّة للتشبيه لها أهمّيَّتُها و أثرُها في سياق المعنى؛ وذلك حين تؤلّف بين الأشياء المتنافرة والأجزاء المتباينة، ثم تنتقل من التنافر والتباين المعجمي إلى التكامل السياقي، وتتحرر فيها الدلالة من إطارها الضيِّق لتتَّجه نحو الاتساع والمجاز، وذلك على النحو التالي:

ــ في بنية الإسناد تبيّن أن الإسناد التشبيهي الاسمي على حالين؛ الأولى يكون فيها المشبّه به خبرًا للمشبّه، والثانية يكون فيها المشبّه به في حكم الخبر للمشبّه. وكذلك الإسناد التشبيهي الفعلي يأتي على هيئتين؛ الأولى يكون فيها الفعل في صورة المشبه، ومفعوله المطلق (يكون مصدرًا مبينًا لنوع الفعل) في صورة المشبه به، والثانية يكون فيها الفعل في صورة المشبه والمشبه به.

ــ في بنية النفي، تبيّن كيف يُستخدم التشبيه لإنكار المساواة بين طرفين لغرض التقرير، أو التقبيح، أو التزيين، معتمدًا على أدوات نفي مختلفة وسياقات متنوعة.

ــ في بنية النهي، يتضح كيف يُوظّف التشبيه لطلب الكفّ عن فعل معين، غالبًا بهدف التقبيح والتحذير من مغبة التشبه بمن سبق من الأمم.

ــ في بنية الوصف، تجلت بلاغة التشبيه في قدرته على تزيين المشبه، أو تقبيحه، أو بيانه من خلال جعل المشبه به نعتًا أو منعوتًا بنعت يضيف دلالات جديدة تخدم السياق البلاغي.

ــ في بنية الحال، ظهر كيف يُستخدم التشبيه بوصفه أداة قوية لإثراء المعنى، وتوضيح الصورة، وجذب انتباه المتلقي من خلال وصف حالة المشبه بالمشبه به.

وقد أكد التحليل على أن اختيار البنية النحوية للتشبيه في القرآن الكريم ليس عشوائيًا، بل يخضع لدقة متناهية تخدم المقصد البلاغي العام للآية. فلكل بنية نحوية

تأثيرها الخاص في نفس المتلقي، وفي إبراز المعنى المراد؛ ذلك أن دراسة بنية التشبيه في القرآن الكريم تفتح آفاقًا واسعة لفهم أعمق لجمالية النص القرآني وإعجازه البلاغي، وتؤكد على أن كل كلمة، وكل تركيب نحويّ فيه يحمل دلالات ومعاني عميقة تستحق التدبر والتأمل.

وفي الختام، فإن هذا البحث قد أسهم في إلقاء الضوء على جانب مهم من جوانب بلاغة التشبيه في القرآن الكريم، ويبقى المجال مفتوحًا لمزيد من الدراسات التي تتناول جوانب أخرى من هذا الموضوع الثري؛ مثل مقارنة أساليب التشبيه في القرآن الكريم بأساليبه في الشعر والنثر العربي.

المصادر المراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانيًا: المطبوعات

- **ابن الأثير: ضياء الدين، المثل السائر، تعليق أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار نهضة مصر.**
- **ابن حجر: امرؤ القَيس، ديوان شعر، تحقيق المصطاوي، دار المعرفة – بيروت، ط2، 1425هـ، 2004م.**
- **ابن عاشور: الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر. تونس، ط 1984 هـ.**
- **أبو موسى: محمد، التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، مكتبة وهبة، ط3 ،1993م.**
- **الآلوسي: شهاب الدين، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ضبط وتصحيح علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1994م.**
- **البدوي: أحمد، من بلاغة القرآن، نهضه مصر– القاهرة، ط 2005م.**
- **البغوي: أبو محمد الحسين، معالم التنزيل في تفسير القرآن ، تحقيق محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1997م، ط4.**
- **التفتازاني: سعد الدين، ضمن شروح التلخيص، مطبعة عيسى الحلبي وشركاه، مصر، ط 1937م.**
- **التنوخي: القاضي، ديوان القاضي التنوخي، ضمن مجلة المورد (مجلة تراثية ثقافية)، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد. العراق، مج 13، ع 1، ط 1984م.**
- **الجرجاني: عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني القاهرة.**
- **الجرجاني: عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني القاهرة.**
- **الجندي: علي، فن التشبيه، مكتبة نهضة مصر، ط 1952.**
- **الحلبي: شهاب الدين، حسن التوسل إلى صناعة الترسل، مطبعة أمين أفندي بمصر، ط1315هـ.**

- الدبل: محمد بن سعد، المقاييس البلاغية والنقدية في قراضة الذهب في نقد أشعار العرب لابن رشيق القيرواني (عرض وتحليل ودراسة)، الرياض، ط2، 1431هـ - 2010م.
- الدسوقي: محمد بن عرفة، حاشية الدسوقي على شرح السعد: ضمن شروح التلخيص، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، ط 1937م.
- الرازي: فخر الدين، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3، 1420هـ.
- الرازي: فخر الدين، نهاية الإيجاز، تعليق نصر الله حاجي، دار صادر بيروت، ط1، 2004م.
- السامرائي: فاضل، معاني النحو، دار الفكر – الأردن، ج1، ط1، 1420هـ، 2000م.
- السبكي: بهاء الدين، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، دار الكتب العلمية، بيروت.
- السكاكي: أبو يعقوب، مفتاح العلوم، ضبطه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط2، 1407هـ، 1987م.
- شادي: محمد إبراهيم، أساليب البيان والصورة القرآنية، داروالي الإسلامية، ط1995م.
- شبايك: عيد، التشبيه المستطرف: رؤية نقدية2/1، حقوق النشر لموقع الألوكة1434هـ، 2013م.
- العسكري: أبو هلال، الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل، المكتبة العنصرية – بيروت، 1419هـ.
- عوني: حامد، المنهاج الواضح للبلاغة، المكتبة الأزهرية للتراث، ج1، ص84.
- القرطبي: أبو عبد الله، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني، و إبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية ـ القاهرة، ط2، 1964م.
- القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت.
- القيرواني: ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعروآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، 1981م.
- المبرد: أبو العباس، الكامل في اللغة والأدب، مؤسسة المعارف، بيروت.
- المتنبي: أبو الطيب، ديوان المتنبي، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصريّة/ بيروت، ط 2014م.

- **المغربي: ابن يعقوب، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، ضمن شروح التلخيص للتفتازني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، ط 1937م.**
- **Rızk, Muhammed. الإسناد بين النَّحو وعلم المعاني. Hitit Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Dergisi 18/35 (June 2019), 315-335. https://doi.org/10.14395/hititilahiyat.511374.**